مكتبة الدراسات اللغوية

كلام العرب

من قضايا اللغة العربية

الدكتور حسن ظاظا

١٩٧١


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مكتبة الدراسات اللغوية

كلام العرب

من قضايا اللغة العربية

الدكتور حسن ظاظا

١٩٧١



مقدمة

اللغة العربية التى تحمل هذا الاسم الآن ، هذه اللغة التى أنزل بها القرآن ، كانت أحدث لغات الساميين عهدا بالكتابة ، وهى مع ذلك أقدم تلك اللغات ميلادا ، وأرسخها قدما فى خصائص العائلة اللغوية كلها .

ويبدو أنها ، على مشارف الجاهلية الأخيرة ، كانت قد تقاص ظلها بين العرب أنفسهم ، حتى أصبحت آخر الأمر لغة مقدسة لهم ، تحمل أريج الأسلاف الأوائل ، وتستعمل عندما يعظم الخطب ، فى المناسبات الاحتفالية الكبرى ، التى يريد فيها أبناء هذه الأمة أن يقولوا ، فينتشر عنهم ما قالوه فى أحياء العرب كافة ، ويبقى على ألسنة الأبناء والأحفاد من بعدهم . وهكذا لهجوا بها فى مواسم الحج ، وفى الأسواق ، ونطقت بها وفودهم السياسية عند المنافرات والأحلاف ، وهوّل بها الكهنة والزعماء والفرسان ، واستعملها الأطباء والعرافون لتضفى على ثقافتهم الخاصة مزيدا من الرهبة والجلال . كما ترنم بها الشعراء حتى يحفظوا على فنهم ، الذى كان أعز فنونهم ، قدسية يستمدها من قدم هذه اللغة ، ويضمنوا له ذيوعا وانتشارا لا تصل إليه لهجة من لهجاتهم القبلية المحلية .

وكانت قريش تتولى الأمانة على هذه اللغة المقدسة ، كأمانتها على سائر المقدسات : فهى حارسة الكعبة ، المسئولة عن السدانة والسقاية والمأوى وإحياء الشعائر والطقوس ، بما كان فيها من خير وشر ، فى هذه الجاهلية المتأخرة .

ولذلك فعندما ينقل لنا الرواة أن قريشا كانت أفصح العرب ، وأنها مع ذلك كانت أفقر العرب فى الشعر وأغناهم فى المال ، فإنهم بذلك يقررون حقيقة ، وهى أن اللغة الفصحى ، اللغة العتيقة ، التى لا يعرفون من مبدئها أكثر مما يعرفون من مبدأ الكعبة نفسها ، وما كان فيها من أصنام وأوثان ، إنما عاشت على لسان قريش كما عاش فيهم الحجر الأسود ، لم يحوزوا ذلك اكتسابا ، ولا بملازمة الشعراء والرواة ، والأخذ عنهم ، ولكن كانت العربية الفصحى عندهم تراثا متواترا متصلا ، هيأتهم رسالتهم بين العرب للحفاظ عليه والمعيشة فيه .

فالذى حدث مع نزول القرآن الكريم ، لم يكن إذن توحيداً للهجات العرب فى لسان عام يستوعبها جميعا ، وإنما كان نهضة للغة المقدسة ؛ وعودة بها إلى الحياة العامة فى أنشط ما تكون ، وخروجا بها عن دائرة اللغة الارستقراطية الخاصة إلى أن تكون أداة البيان العام للدين الجديد والدولة الجديدة ، الإسلام فرض اللغة الواحدة كما فرض الإله الواحد ، لغة قريش وإله إبراهيم . ولكن ما من شك فى أن هذه اللهجات التى سبقت الإشارة إليها ، وإن لم تدخل أقانيمَ فى تكوين اللغة الواحدة ، قد ترشّحَ منها بعض أثر ، تسرّب إلى لغة قريش ، ثم انطلقت هذه اللغة حية ناهضة شابة تحتل مكان لغات سامية أخرى كانت قد ماتت فى هذا الشرق الأوسط أو دخلت فى دور الاحتضار . وكان منطلق اللغة العربية هذا مع انتشار الدين فى معظم الأحيان ، أو توغل سلطانه الفكرى والحضارى والسياسى مع كتائبه المحاربة فى بعض الجهات التى قبلت العروبة ورفضت الإسلام . وكان انتشار العروبة فى هذه المواطن أمراً طبيعيا ، بكونها الوريث الشرعى الوحيد لألسنة الساميين الأخرى ، كما كان زوالها من بلاد

قبلت الإسلام ورفضت العربية أمراً طبيعياً أيضا ، كإيران وأفغانستان وتركيا والباكستان ؛ لأن الميراث اللغوى لم يكن من حق العربية شرعا ، فى بلاد ألسنتها هندية أو طورانية من حيث الأصول الجذور .

وهنا أيضا لم تسلم العربية الفصحى من رشح آخر ، كالذى تسرب إليها من لهجات القبائل بل أشد خطرا ، فبقايا الساميين بلهجاتهم ولكناتهم من ناحية ، وتلك الأمم الشعوبية برطاناتها الغريبة ، وحضاراتها العريقة ، وعرفها المختلف من ناحية أخرى ، كل ذلك ترك أثره فى الفصحى ، سواء أكان ذلك فى النطق أم فى تصريف الألفاظ أم فى التركيب . ثم إن هذه اللغة بعد أن حملت عبء حضارة من أضخم ما عرفت الإنسانية من حضارات ، جاء عليها حين من الدهر أظلمت فيه الدنيا من حولها ، فكانت عصور الجمود أولا ثم التدهور والانحطاط ثانيا ، على طول أيام المماليك والعثمانيين حيث حكم هؤلاء وأولئك ، وفى ظل التفتت والفوضى السياسية والتأخر الفكرى حيث لم يحكموا .

وانتعشت القوميات فى أوروبا وأمريكا فى خلال القرن التاسع عشر ، وتكالب الاستعمار على إفريقية وآسيا حتى بلغ ذروته فى ذلك القرن نفسه ، ونقل المستعمر معه ، ورغم أنفه ، بقية من وعى قومى هزت البلاد التى أرادها ملكا له فأيقظتها من سباتها ، وكان فى مقدمة من استيقظ العالم العربى . وتذكرت الفصحى مع هذه اليقظة أيامها المجيدة الأولى ، فقامت حركة واسعة

النطاق لإحياء هذه اللغة وتجديد شبابها . وهنـــا ارتطم لسان المتكلم بمعوقات عهود الانحطاط ، وكان عليه أن ينتفض حتى يصنع لنفسه لغة جديرة بأن تهيء له مكانه فى حضارة القرن العشرين . وهنا أيضا كثر الأخذ والجذب ، وكثرت فى اللغة الأقاويل . فالبحوث العلمية العليـــا فى الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات كانت لا تريد ، أو بالأحرى لا تستطيع ، أن تعبر بالعربية ، وبقينا عشرات السنين ندرس ذلك كله بالإنجليزية فى بعض بلاد العرب ، وبالفرنسية فى البعض الآخر . أما الجامعـــات الدينية العتيدة ، كالأزهر والزيتونة والقرويين والنجف الأشرف ، فإنها قطعت الشك باليقين ، وبقيت فى البداية ترفض تدريس هـــذه العلوم بالعربية أو غيرها . وفى الآداب اتسعت الهوة بين أدب العالم المتحضر وذلك الأدب اللفظى المزركش الذى أصبح حرفة أرباب الأقلام فى عصور الانحطاط . وكثر المتبرمون بهذه الحال ، فأما من لا يحسن العربية منهم فقد لجأ إلى الآداب الأوروبية يعاقرها بمعزل عن الجو العربى ، أو ينقل منهـــا ويترجم إن كان قادر على ذلك ، أو يرتوى من معينها ثم يؤتى ثماره فى أدبٍ لغتُه عربية ، مع مزيد من التسامح ، إذ جوهر التفكير ، ونهج السبك والصياغة ، وخلجات الإحساس ، تـــكاد تكون أوروبية فى الأغلب الأعم . بل وصل التبرم ببعض المفكرين إلى حافة اليأس ، فتخبطوا وصاح بعضهم « نحن نتعلم أولا لنقرأ ، بينما أمم العالم كلها تقرأ لتتعلم » ، وقال آخرون بإلغاء الإعراب ، والاصطلاح على لغة موقوفة ، ونادى غيرهم بالكتابة بالأبجدية الأوروبية ، علاجا لمتاعب القراءة بالعربية ،

بل أكد آخرون أن العـــامية هى الطريقة المثلى ، وأنه لانهضة ، ولايقظة إلا بعد دفن العربيـة الفصحى . وجاجـل ناقوس الخطر فى المعسكرات المحافظة ، فهب فرسانها يقاتلون مستميتين فى الحفاظ على اللغة العتيقة العريقة ، كما هى ، لا يسمحون بأى تطور . واعتدلت طائفة فراحت تدعو إلى مزيج من العربية والعامية ، أو تدعو إلى صنع ألفـــاظ جديدة وراء حيطان المجامع اللغوية العربية ، بالمئات والآلاف ، فى كل علم وفن . وبدا لبعضهم أن الإصـــلاح يجب أن يولد فى المدرسة ، وأن الإصلاح هو التقليـــل والتهوين والتبسيط ، فظهرت كتب لا عدّ لها ، تدّعى كل فصيلة منها أنها تحمل الإكسير السحرى الذى يحل عقـال الأبكم ، ويفجر ينابيع الفصاحة من صخور اللكنة والركاكة . وما تزال التجارب تترى ، وفى كل مرة يبدو الخطأ الجسيم ، وتمسّ معه الحاجة لتجارب أخرى . ولكن ينبغى أن نقول ، إحقاقا للحق ، إن جيلا من أرباب الأدب والصحافة والمسرح ، ومن العلماء المتعمقين فى العربية وتاريخها وآدابها ، ومن المترجمين والملخصين والمعلقين والنقاد ، قد ضربوا مثلا للعمل المنظم الذى يفرض الأُنس به على أشد القلوب جحودا ، هذا فضلا عن فوج من الشعراء الذين حركوا القلوب مع حركة العقول ، على نحو انبثق عنه فى نفس القارىء العربى بصورة عفوية تلقائية شعور عميق بأن هذه اللغة الفصحى ما تزال صالحة للحياة والحضارة ، وكان من نتائج هذا أن انضوى أساتذة العلوم الرياضية والطبيعية والهندسية والطبية تحت هذا اللواء ، وتم جانب ضخم جـــدا من تعريب التفكير العلمى ، وإذا بالعالم العربى فى جامعاته يعود ، رويدا رويدا ،

إلى دراسة هذه العلوم بالعربية . وتغلبت اللغة على خطر الموت وخرجت من هذه الجولة الأولى ، والحاسمة ، منتصرة انتصارا لاشك فيه .

ونريد فى الصفحات التالية أن ندور دورة فى آفاق العربية خاصة نعرف منها خصائصها ، ونحاول تصوير الذوق اللغوى العام الذى يميزها ، ثم نمس بعض ماتعرضت له من مشاكل فى تاريخها الفكرى الطويل .

حسن ظاظا

— ١ —

أصوات اللغـة العربية

معروف أن الأصوات فى اللغة ، هى مادة الألفـــاظ ، وأساس الكلام المركب ، والعمدة فى تلوين الأداء ، وإعطائه رنينا إضافيا يزيد من وضوح التعبير ، وصدقه فى حمل فكرة المتكلم . أو التأثيرها فى السامع ، هذه الأصوات تتشخص ويتميز بعضها من بعض فى اللغات بناء على اعتبارات عدة أهمها :

ا ـ النقطة التى يلتقى عندهـا طرفان من جُدران أعضاء النطق ليمر الهـواء بينهما ، وهو مانسميه « مخارج الحروف » . فالباء والميم والواو والفاء حروف شفة ، لأن منطقة النطق بهـا بين الشفتين . والعين والحاء والهمزة والهاء حلقية لأن مخارجها فى الحلق مما وراء اللهاة . والسين والزاى والصاد حروف صفيرية أسنانية ، كما أن القاف والغين والخاء لهوية ، لأن منطقة خروجها هى اللهاة وما جاورها ، وهكذا .

ب ـ عمل الأوتار الصوتية أو توقفها عن العمل أثناء النطق بالحرف . فبعض الحروف عندما ينطلق من مخرجه يدخل فى النطق به زَمْرٌ صادر من الأوتار الصوتية ، وبعضها يكون صوته نتيجة احتكاك الهواء بالمَخرج دون زَمْر ، فالفرق بين أنْ أنطق هاتين الكلمتين « رائع » ، و « رائح » مبنى على هذا الاعتبار فى التفرقة بين العين ، التى تعمل فيها الأوتار الصوتية وتقوم بالتزمير ، والحاء التى تسكت فيها هذه الأوتار ، فيكون الصوت حفيفا للنفَس بين نقطتى المخرج

أما المخرج نفسه ، أى منطقة النطق بهذين الحرفين ، فهى واحدة . وكذلك الأمر فى الخاء والغين ، فالفرق بين قولى « خاب » و « غاب » يرجع أيضا إلى إقتران الغين بتزمر الاوتار الصوتية ، وخلو الخاء من ذلك . وفى نطقى للفعلين « جسّ » و « جزّ » ألاحظ نفس الأمر ، فالسين حرف مهموس أو صامت والزاى حرف مجهور أو صائت .

حـ - مسار الهواء فى منطقة النطق ، فهناك حروف ينطق بها باغلاق نقطة المخرج إغلاقا محكما يحبس النفَس وراءه ، ثم ينفجر عنه دفعة واحدة . وهى الحروف الشديدة أو الإنفجارية . وهناك حروف أخرى تنطبق فيها نقطتا المخرج انطباقا جزئيا فقط ، فيظل هواء النفَس يسرى خلالها دون انفجار ، وهى الحروف الرخوة أو الإحتكاكية . فالفاء حرف احتكاكى ، والباء حرف انفجارى ، مع أن كليهما يخرج من بين الشفتين ، فاذا نطقنا كلمة « دُبّ » مثلا نجد أن الباء لا يمكن أداؤها إلا باغلاق محكم متلوّ بانفجار . بخلاف قولنا « دُفّ » . والحكم فى ذلك هو وقوع الحرف ساكنا بعد حركة ونُطقنا به ، فاذا امكننا أن نستمر فى إخراج صوته على طول نفَسنا فهو احتكاكى ، وإذا استغرق النطق به لحظة الانفجار فقط ، ولم يمكن بعد ذلك الاستمرار ، فهو انفجارى فإذا قلت « قَطْ » تبين لى ان الطاء انفجارية ، وكذلك « قَدْ » و « قَبْ » و « قَتْ » وبالعكس إذا نطقت « قش » أو « قز » أو « قس » او « قح » .

د - اتساع حيّز الرنين فى جهاز النطق . فنحن نعرف ان كل آلة موسيقية تعطى نغما او انغاما معينة ، تكون مزودة فى كثير من الأحيان بما يسمى

« صندوق الرنين » ، أو « حيز الرنين » ؛ فصندوق الرنين فى العود يختلف عنه فى الكمان أو فى القانون أو فى البُزُق . والبيانو منه أشكال وأحجام ، تختلف صناديق رنينها فى الاتساع ، فمنها الرأسى البسيط ، ومنها الأفقى النصفى ، ومنها الأفقى الكبير الكامل .

والصوت الإنسانى يرنّ فى داخل أعضاء النطق ، فإذا ضاق حيز الرنين ، أى صغر حجم الفراغ الهوائى الذى يرن فيه الصوت ، جاء الحرف مرققا او منخفضا . أما إذا اتسعت التجاويف وكبر حجم الفراغ الهوائى فإن الحرف يسمع مفخما أو مستعليا . وهذا هو الفرق الصوتى عندما أنطق كلمتين مثل « فذّ » و « فظّ » ، فالذال والظاء كلاهما من الحروف بين الاسنانية ، وهى من الحروف الصائتة . وهى من الاحتكاكية ، ولكن جاء الفرق من الترقيق فى الذال والتفخيم فى الظاء . وكذلك الأمر عندما أقول « سَارَ » و « صَارَ » ، أو « تَبِت » و « تَبَسَّط » .

هـ ـ مجرى النفَس عند النطق ، وهو عادة من الفم ، ولكن بعض الحروف يُحبس فيها منطلَقُ الهواء من الفم ، فيخرج النفَس من الأنف ، وهذه الحروف هى الميم والنون ـ فهما حرفان فقط فى اللغة العربية . ومن الملاحظ أن الإنسان إذا أصابه زكام فانسد أنفه تعذر عليه نطق هذين الحرفين ، ونطق بدلهما بالباء واللام ليقول مثـــلا إنه « بزكوب » بدلا من « مزكوم » ، ويشكو من سدد « الألف » أى « الأنف » .

و ـ اتجاه النفَس عند النطق . فقد نبه كثير من الباحثين فى طبائع اللغات إلى أن اساس اللغة الأصوات الصادرة مع الزفير فقط ، أى التى يتجه بها الهواء

من الداخل إلى الخارج . وهناك أصوات تحدث مع الشهيق ، وبعضها مستعمل فى التعجب والدهشة أو الرفض أو الإستنكار ، كما أن منها التقبيل بصوت مسموع ، وكلها روافد ثانوية للتعبير ، وليست مادة لغوية بالمعنى الاصطلاحى .

كل الاعتبارات السابقة الذكر خاصة بما يسمى بالحروف ، دون الحركات . وقد سماها بعضهم الصوامت ، وسماها غيرهم الحروف الساكنة ، وهى على كل حال الأصوات التى تحاول الأبجديات الرمز لها فى كل لغة ، ويعدّها اللغويون فى حاجة إلى الحركة قبلها أو بعدها حتى يتسنى نطقها . وأما مايسمى بالحركات ، أو المصوتات ، فهو الفتح والضم والكسر ؛ وقد جرت العادة ، عند البحث فى هذه الحركات ، على تقسيمها من حيث طبيعتها فى علم الصوت إلى حركات أصلية هى التى ذكرناها الآن ، وحركات فرعية تتكون من مزيج خاص من بعض الحركات الأصلية . فلو تصورنا أن الفتحة الصريحة توجد فى رأس مثلث وأن الضمة الصريحة توجد فى الزاوية اليمنى من قاعدته والكسرة الصريحة فى الزاوية اليسرى فإننا نستطيع أن نستنبط من هذا المثلث ما يلى :

ا — على ضلعه الأيمن بين الفتحة والضمة توجد الإمالة المضمومة ، كما تقول فى بعض عامياتنا « يوم » بإمالة مضمومة ، بدلا من فتح الياء وسكون الواو ، الذى يسميه بعض اللغويين المحدثين « المصوّت المزدوج [1] » . وهذه الضمة الممالة لها درجات تتأرجح فيها بين طرفى الضلع قربا وبعدا ، فهى أحيانا تكون أقرب إلى الفتحة الخالصة وأحيانا أخرى إلى الضمة القحة .

---

(١) العربية الفصحى : تأليف الاب هنرى فليش اليسوعى — تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين، المطبعة الكاثوليكية — بيروت ١٩٦٦ص ٣٦

ب - على الضلع الأيسر بين الفتحة والكسرة توجد الإمالة المكسورة ، التى اختصها نحاة العرب وقراء القرآن باسم الإمالة ، وهى التى ينطق بها بعض العوام من العرب كلمة « بيت » بدلا من المصوت المزدوج وهو فتح الباء وسكون الياء ، وهو الذى اشتهرت به إمالة كلمة « مجراها » فى قوله تعالى « وقال اركبوا فيها بسم الله مَجْرِيها ومُرساها إنَّ ربى لغفور رحيم » - (هود ٤١) .

ج - على الضلع الأسفل بين الضمة والكسرة يوجد مايسميه النحاة بالإشمام وهو مزيج من الضمة والكسرة فى حركة واحدة ، عندما يبنى الفعل الأجوف الماضى للمجهول ، فتكون هذه الحركة مثل نوع خاص من الضمة موجود بكثرة فى اللغة الألمانية وفى اللغة الفرنسية . وإلى هذا الإشمام أشار ابن مالك فى الألفية بقوله :

واكسِرْ أو اشمِمْ فَا ثلاثىٍ أُعِلّْ عينا ،وضُمَّ جَا ، كـ « بُوع» فاحتمِل

قال ابن عقيل فى شرحه :

« إذا كان الفعل المبنى للمفعول ثلاثيا معتل العين ، سُمع فى فائه ثلاثة أوجه :

(١) إخلاص الكسر ، نحو « قيل » و « بيع » ، ومنه قوله :

حِيكَتْ على نِيرَيْنِ إذ تُحاكُ تَختَبِطُ الشَّوكَ ولا تُشَاكُ

(٢) وإخلاص الضّم ، نحو « قُولَ » و « بُوعَ » ، ومنه قوله :

لَيْتَ ، وهَلْ يَنفعُ شَيْئًا لَيْتُ ؟ لَيْتَ شَبَابًا بُوعَ فاشتريتُ

وهى لغة بنى دُبَيْر وبنى فَقْعَس ، وهما من فصحاء بنى أسد .

(٣) والإشمام ، وهو الإتيان بالفاء بحركة بين الضم والكسر ، ولايظهر ذلك إلا فى اللفظ ، ولايظهر فى الخط (أى أن العربية الفصحى لاتوجد فى حركاتها المكتوبة حركة الاشمام) ، وقد قرىء فى السبعة قوله تعالى « وقيل يا أرضُ ابلعى ماءَكِ وياسماءُ أقلعى وغيض الماءُ » بالإشمام فى « قيل » و « غيض » .

وهذا الإشمام السابق شرحه واقع فى حالات الحركة الطويلة الممدودة . وهو يقع أيضا فى حالة الحركة القصيرة ، قال ابن مالك فى الألفية :

وإنْ بِشكْلٍ خِيفَ لَبْسٌ يُجْتَنَبْ
وَمَا لِبَاعَ قَدْ يُرَى لِنَحْوِ حَبّ

قال ابن عقيل فى شرحه :

« إذا أُسْنِد الفعل الثلاثى المعتل العين - بعد بنائه المفعول - إلى ضمير متكلم أو مخاطب أو غائب ، فإما أن يكون واويا أو يائيا :

فان كان واويا - نحو « سَامَ » من السوم ، وجب عندالمصنف كسر الفاء ، أو الإشمام . فتقول « سمت » ، (بالكسر أو الإشمام) ، ولايجوز الضم ، فلا تقول « سمت » ، لئلا يلتبس بفعل الفاعل ، فانه بالضم ليس إلا ، نحو « سمت العبد » .

وإن كان يائيا - نحو « باع » من البيع ، وجب عند المصنف أيضا ضمه

أو الإشمام . فتقول « بعت ياعبد » ، (بالضم أو الإشمام) ولايجوز الكسر ، فلاتقول « بعت » ، لئلا يلتبس بفعل الفاعل ، فإنه بالكسر فقط نحو « بعت الثوب » . وهذا معنى قوله : « وإن بشكل خيف لبس يجتنب » أى : وإن خيف اللبس فى شكل من الأشكال السابقة ـ أعنى الضم ، والكسر ، والاشمام ـ عدل عنه إلى شكل غيره لالبس معه .

هذا ماذكره المصنف ، والذى ذكره غيره أن الكسر فى الواوى ، والضم فى اليائى ، والإشمام هو المختار ، ولكن لايجب ذلك ، بل يجوز الضم فى الواوى والكسر فى اليائى .

وقوله : « ومالباع قد يرى لنحو حب » معناه : أن الذى ثبت لفاء «باع» ـ من جواز الضم ، والكسر ، والإشمام ـ يثبت لفاء المضاعف ، نحو « حب » ، فتقول « حب » (بالضم) و « حب » (بالكسر) وإن شئت أشممت » . [1]

د المزج بين الحركات الرئيسية الثلاث التى على زوايا المثلث فى حركة واحدة قصيرة تكون فى قلب هذا المثلث بؤرة تتجمع فيها هذه الحركات ، وهى الحركة التى تلون بها همزة الوصل عندما نقول « اكتب » و « اضرب » .

أما الحروف الساكنة فى اللغة العربية فقد عدها القدماء تسعةوعشرين حرفا. قال سيبويه [2]: « فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا : الهمزة ،

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك فى النحو ــ طبع محيى الدين عبد الحميد ــ ط ١٤ سنة ١٩٦٤ ج ١ ص ٥٠٢ وما بعدها

(٢) كتاب سيبويه ــ ط . بولاق القاهرة ، ١٣١٦ هجرية ــ ج ٢ ص : ٤٠٤ .

الألف، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء ، والكاف، والقاف . والضاد ، والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء . والدال، والتاء، والصاد ، والزاى ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء،والميم، والواو . » ونلاحظ أنه قد رتبها بحسب نقطة المخرج ، مبتـــدئا بأقصى الحلق ومنتهيا بالشفتين .

أما السكاكى فإنه ذكر أيضا أن عددها تسعة وعشرون ، ثم نظر فى تقسيمها إلى اعتبارات أخرى هى التى شرحناها آنفـا ، فتكلم عن المجهورة والمهموسة ، وشرحها بشيء بين ماسميناه بالحروف الصائتة والصامتة، ومادعوناه بالانفجارية والاحتكاكية ، ولذلك لايخلو تقسيمه من مواضع للنظر ، قال : اعلم أنها عند المتقدمين تتنوع إلى مجهورة ومهموسة ، وهى عندى كذلك ، لكن على ما أذكره وهو : أن الجهر انحصار النفس فى مخرج الحرف ، والهمس جرى ذلك فيه . والمجهورة عندى : الهمزة ، والألف ، والقاف ، والكاف ، والجيم ، والياء ، والراء ، والنون ، والطاء والدال ، والتاء ،والباء ، والميم ، والواو . ويجمعها قولك (قدك أترجم ونطايب) . والمهموسة ماعداها . ثم إذا لم يتم الانحصار ولا الجرى [هكذا يقول ولاندرى كيف] كما فى حروف قولك (لم يروعنا) ، سميت معتدلة ، ومابين الشديدة والرخوة . وإذا تم الانحصار ، كما فى حروف قولك (اجدك قطبت) سميت شديدة . وإذا تم الجرى كما فى الباقيـة من ذلك سميت رخوة . ثم إذا تبع الاعتدال ضعف تحمل الحركة ، أو الامتناع عنه كما فى الواو والياء والألف ، سميت معتلة . وإذا تبع تمام الانحصار حفز وضغط كما فى حروف قولك (قد طبج) سميت حروف الخلخلة (١) . وتتنوع أيضا إلى

---

(٢) هى التى نسميها عادة حروف القلقلة ، ولعل الخلخلة تحريف

مستعلية ، وهى الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ،والغين والخاء ، والقاف. وإلى منخفضة ، وهى ماعداها . والاستعلاء أن تتصعد لسانك فى الحنك الأعلى ، والانخفاض بخلاف ذلك . فإن جعلت لسانك مطبقا للحنك الأعلى كما فى الصاد والضاد والطاء والظاء ، سميت مطبقة . وإلا - كما فى سواها - سميت منفتحة . [1]»

وتقسيم السكاكى هذا مضطرب ، فقد لاحظنا أنه وضع الراء والنون والألف فى تلك الفصيلة المجهورة التى عرفها بأنها تتميز بانحصار النفس فى مخرج الحرف ، وهى لاتستقيم على اصطلاحه هذا ، كما أننا نلاحظ أن الحروف التى سماها معتدلة أو بين الشديدة والرخوة تبدو من خلال حديثه وكأنها جزء أو قسم خاص ، حتى إذا ذكر هذه الحروف وجدنا فيها بعضا من الطائفة السابقة وبعضا ليس منها مثل اللام والعين . واعتباره الغين والخاء من الحروف المستعلية غامض أيضا .

أما سيبويه فانه بعد أن ذكر الحروف التسعة والعشرين ، وسماها ، عاد يستوفى بعض المخارج التى تنطق بها العرب وليس لها رمز فى الكتابة ، أو التى تنطق بها قبائل فصيحة منهم ، فقال : [2] « وتكون خمسة وثلاثين حرفا ، بحروف هن فروع - وأصلها من التسعة والعشرين - وهى كثيرة يؤخذ بها وتستحسن فى قراءة القرآن والأشعار ، وهى : النون الخفيفة ، والهمزة التى بين بين ، والألف التى تمال إمالة شديدة ، والشين التى كالجيم ، والصاد التى تكون

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكى أبى يعقوب يوسف — القاهرة ١٣١٧ هجرية — ص ٥

(٢) سيبويه ، الموضع السابق ذكره .

كالزاى ، وألف التفخيم ، يعنى بلغة أهل الحجاز فى قولهم الصلاة ، والزكاة ، والحياة . وتكون اثنين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ، ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته ، ولا تستحسن فى قراءة القرآن ولا فى الشعر ، وهى : الكاف التى بين الجيم والكاف ، والجيم التى كالكاف ، والجيم التى كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التى كالسين ، والطاء التى كالتاء ، والظاء التى كالثاء ، والباء التى كالفاء . وهذه الحروف التى تممتها اثنين وأربعين - جيدها ورديئها - أصلها التسعة والعشرون ، لا تتبين إلا بالمشافهة .

وهو كما نرى حصر علمى على أعلى درجة من التدقيق ، اعتمد على السماع الذى يسميه « المشافهة » ، كما اعتمد على استقراء فى اللهجات « جيدها ورديئها » كما يقـــول .

أما المحدثون فإنهم جعلوا « الصوامت » أى الحروف الساكنة التى تعتريها الحركات ثمانية وعشرين فقط ، وهم فى ذلك على حق إذ أخرجوا الألف اللينة منها ، لأنها بشتى أشكالهـــا ، من المفخمة الجانحة نحو الضم كما فى « الصلاة » و « الزكاة » و « والحيـاة » بلغة أهل الحجاز ، إلى الممدودة المفتوحة العـادية ، إلى المرققة ، ثم الممالة نحو الكسر ، لا تكون إلا مدا لحركة ولا تعـــتريها هى الحركات كما تعترى الحروف الساكنة .

وقد رتب الأب هنرى فليش[1] مخارج الحروف الثمانية والعشرين على هذا النحو :

---

(١) العربية الفصحى الموضع السابق ذكرها .

(١) أربعة شفوية هي : الباء وهى مجهورة شديدة (أى انفجارية أو احتباسية) ، والميم وهى أنفية من نفس مخرج الباء ، والواو وهى مجهورة رخوة (أى احتكاكية) ، والفاء وهى مهموسة رخوة .

(٢) حروف أسنانية ، وعددها أحد عشر ، قسمها إلى أربع فصائل :

أ ـ أسنانية لثوية ـ شديدة ، وهى أربعة : الدال (مجهورة) ، والنون ، وقد عدها أنفية من مخرج الدال ، وعندنا أنها لثوية بحتة من مخرج اللام إلا أنها من الأنف ، والتاء وهى مهموسة رقيقة ، والطاء وهى مهموسة مفخمة من نفس مخرج التاء .

ب ـ بين أسنانى ، رخو (احتكاكى) وهى ثلاثة : الذال ، والظاء المفخمة من مخرج الذال وهما مجهوران ، والثاء الرقيقة المهموسة من نفس المخــــرج .

جـ ـ بين أسنانى ، رخو ، مجنب (والمجنب هو الذى يعتمد اللسان فى النطق به على أحد جانبي الفم أو كليهما) ، وقد جعل فى هذه الفصيلة حرفا واحدا هو الضاد ، التى تعتبر أخص خصائص اللغة العربية « لغة الضـاد » .

د ـ أسنانى صفــــيرى ، رخو (احتــكاكى) وهى ثلاثة أحرف : الزاى المجهــــورة ، والسـين المهموسة المرققة ، والصـاد المهموسة المفخمـــة .

(٣) لثوية ، رخوة (احتكاكية) وهى حرفان مجهوران ، الراء ،

واللام ، وقد فرق بينها الآب فليش فى تحديد منطقة النطق بكل منها على اللثة على النحو التالى :

أ ـ ذواقى [١] ، وهو الراء ، وقد وصف بعضهم نطق الراء بأنه « ترددى » أو « لمسى » ، والصفة الأولى لا بأس بها فى رأينا .

ب ـ حافىّ ، وهو اللام .

(٤) الحروف الحنكية وهى عنده ثلاثة أنواع :

---

(١) هذا الاصطلاح منسوب إلى ذواق اللسان وهو طرفه ، وكذلك ذواق السنان طرفه أيضا . قال السيد مرتضى الزبيدى فى شرح القاموس المحيط: «ومن المجاز (الحروف الذلق) بالضم وهى حروف طرف اللسان والشفة ، الواحد أذلق . وهن ستة : ثلاثة ذولقية ، وهى اللام والراء والنون . وثلاثة شفهية : وهى الباء والفاء والميم . وإنما سميت هذه الحروف ذلقا لأن الذلاقة فى المنطق انما هى بطرف أسلة اللسان والشفتين ، وهما مدرجتا هذه الحروف الستة ، نقله الصاغانى وابن سيده ، وزاد الأخير ، وقيل لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان وهو صدره وطرفه . قال ابن جنى : وفى هذه الحروف الستة سر طريف ينتفع به فى اللغة ، وذلك أنه متى رأيت اسما رباعيا أو خماسيا غير ذى زوائد فلابد فيه من حرف من هذه الستة أو حرفين ، وربما كان ثلاثة . وذلك نحو جعفر، فيه الراء والفاء ، وقعضب فيه الباء ، وسلهب فيه اللام والباء ، وسفرجل فيه الفاء والراء واللام ، وفرزدق فيه الفاء والراء ، وهمرجل فيه الميم والراء واللام ، وقرطعب فيه الراء والباء ، وهكذا عامة هذا الباب ، فتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية =

أ ـ نطعى [1] وقد ذكر فيه حرفين هما : الجيم ، وهى مجهورة شديدة (احتباسية أو انفجارية) وهى ليست بالصوت البسيط فنطقها الفصيح نطق يدخله شيء من الدال . والحرف الثانى هــو الشين وهى مهموسة مرققة ، وطبيعة مخرجها يجعل بين صوتها وبين الحروف الصفيرية قرابة ، ولذلك كنت أسمى الزاى حرف « أزيز » ، والسين والصاد حرف « صفير » والشين حرف « تشيش » .

ب ـ وسط حنكى ، ووضع فيه الياء وهى مجهورة ، وقد جعلها رخوة .

= معراة من بعض هذه الحروف الستة ، فاقض بأنه دخيل فى كلام العرب وليس منه . ولذلك سميت الحروف غير هذه الستة (المصمتة) أى صمت عنها أن يبنى منها كلمة رباعية أو خماسيه معراة من حروف الذلاقة » وهكذا نلاحظ أن الآب هنرى فليش قد خصص اصطلاحا صوتيا قديما عند العرب بمعنى جديد، دون أن ينبه إلى هذا .

(١) النسبة إلى « النطع » ، قال السيد مرتضى الزبيدى فى شرح القاموس المحيط أنه « ماظهر من الغار ، أى من غار الفم الأعلى ، وهى الجلدة الملتزقة بعظم الخليقاء، فيه آثار كالتحزيز ، وهناك موقع اللسان فى الحنك ، جمعه نطوع لا غير ، ويقال لمرفعه من أسفله الفراش ، واليه نسب الحروف النطعية، وهى الطاء والدال والتاء، يجمعها قولك (طدت) ، سميت لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى » ومن ذلك يبدو أن الآب هنرى فليش قد حول الاصطلاح الصوتى العربى القديم عن جهته عند علماء النطق دون أن يشرح سبب هذا أيضا .

جـ ـ أقصى حنكى شديد، وهو الكاف ، المهموسة الرقيقة .

(٥) حروف حفافية لهوية ، وهى من أقصى الحنك على مشارف الحلق ، وقد جعلها نوعين :

أ ـ حفافى ، رخو (احتكاكى) : الغين ، وهى مجهورة ، والخاء وهى مهموسة منها .

ب ـ لهوى ، مهموس شديد (انفجارى) ، مفخم . وهو القاف .

(٦) الحروف الحلقية ، وقد قسمها إلى نوعين أيضا :

أ ـ حنجورى ، رخو (احتكاكى) ، وفيه حرفان : العين ، وهى مجهورة ، والحاء ؛ وهى مهموسة منها .

ب ـ مزمارى ، وجعل فيه الهمزة والهاء كليهما مهموسين ، وهو غلط ، لأنه بترتيبه هذا لا يكون هناك أدنى فرق فى النطق بين هذين الحرفين ، وكان عليه أن يقول أن الهمزة شديدة ، أى انفجارية ، والهاء رخوة أى احتكاكية .

وفى ترتيب الأب هنرى فليش لمخارج الحروف ، ثلاثة أحرف من غير مخارج الفصحى ، تحدث عنها فى ملحوظة ذيل بها جدوله [1] ، فقال أن منها صوتين وصف سيبويه نطقهما ، أحدهما شىء يشبه الضاد التى ينطقها

---

(١) العربية الفصحى ، ص. ٤١ .

العامة فى مصر دالا مفخمة ، ولذلك اعتبرها الأب فليش من النوع الاسنانى اللثوى الشديد (الانفجارى أو الاحتباسى) ، مجهورة مفخمة . والثانى هو مايسميه الأب فليش الجيم اليائية ، واعتبرها النطق المجهور المقابل للكاف المهموسة ، فهى عنده حرف أقصى حنكى ، شديد (احتباسى أو انفجارى) مجهور . والحرف الثالث هو حرف لهوى شديد مجهور ، من فصيلة القاف ، فلعله مفخم وان لم يضمه الأب فليش فى المفخمات ، ولكنه لم يضع القاف نفسها فى المفخمات .

وإذا كنا قد لاحظنا قلقا فى الاصطلاحات الخاصة بعلم الاصوات اللغوية ، فان مرجع ذلك هو عدم الاتفاق حتى الآن على تصنيف تحدده أسماء يلتزم بها الجميع ، وما زال المؤلفون إذا ترجموا المصطلح الاوربى ترجموه بما يعن لكل واحد منهم ، فمثلا صديقنا المرحوم الدكتور محمود السعران [١] ، يسمى الحروف العربية الثمانية والعشرين « الصوامت » ، ثم يقسمها حسب « طريقة النطق » ويشرح ذلك قائلا : « أى حسب حالة مر الهواء عند موضع النطق » ويقول فى عرض هذه الأقسام : « أن الاقسام الرئيسية للصوامت التى تمتاز على هذا الأساس هى :

(١) الانفجارية (أو المنفجرة) Plosives - وهى التى سماها آخرون احتباسية [٢] .

---

(١) الدكتور محمود السعران ،علم اللغة-دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ص١٩٠ وما بعدها.

(٢) الأب هنرى فليش - الموضع السابق ذكره.

(٢) الانفجارية الاحتكاكية Affricates :

(٣) الغنّاء (= الأنفية) Nasal .

(٤) المنحرفة Lateral - وسماها هو أيضا الجانبية وعند غيره سميت الحافية (الآب فليش)

(٥) المكررة Rolled - وسماها غيره الزددية ، أو اللمسية وهى الراء .

(٦) المستلبة (= المستلة) أو « المفردة » Flapped - وهى فيما يبدو خاصة ببعض المتكلمين فقط ، قال الدكتور السعران [١] : « تتكون الصوامت المستله (= المستلبة ، المفردة) ، بإحداث طرقة واحدة من عضو مرن كطرف اللسان ، على عضو آخر كاللثة ، بحيث لا يستغرق الاتصال زمنا ملحوظا . ومن أمثلة هذه الأصوات « الراء المستلة » .. تتكون « الراء المستلة » كما تتكون « الراء المكررة » ولكن ليس فيها إلا طرقة واحدة من طرف اللسان على اللثة . ويحدث الوتران الصوتيان عند نطقها نغمة موسيقية . فهذه الراء صامت مجهور لثوى مستل . وبعض المتكلمين بالانجليزية الأدبية يستعملون هذه الراء موضع « الراء الاحتكاكية » ، وخاصة عندما تتوسط هذه الراء صوتين صائتين ، كما فى كلمة very (Veri)

(٧) الاحتكاكية Fricatives — وهى التى يسميها آخرون « رخوة » .

---

(١) علم اللغة ص ١٨٨

(٨) المتمادة غير الاحتكاكية Frictionless Centinuants — وهى صوت غير موجود فى العربية الفصحى إلا لو اعتبرنا منه حرف اللام ، وقد شرحه الدكتور السعران بقوله [١] : « يطلق هذا المصطلح على بعض صوامت مجهولة تتكون فى نفس المواضع الملائمة لتكوين صوامت احتكاكية ، ولكن لايسمع فى نطقها احتكاك : إما لأن قوة النفَس (= الزفير) فى تكوينها أضعف من تلك المستخدمة فى نطق الاحتكاكية المقابلة لها ، وإما لأن درجة انفتاح الأعضاء عند موضع النطق تكون أوسع منها عند نطق الاحتكاكية المقابلة لها ، وإما لاجتماع هذين العاملين . ومن أمثلة الصوامت المتمادة غير الاحتكاكية نطق كثير من الإنجليز الراء الإنجليزية . فالشائع فى الراء الإنجليزية أن تنطق (صامتا ، مجهورا ، لثويا ، احتكاكيا) ، ولكن كثرة من الإنجليز تجعل الفتحة بين ذلق اللسان وبين اللثة أوسع شيئا ما من تلك اللازمة لاحداث الراء الاحتكاكية ، وتستخدم قوة زفير أضعف من المستخدمة عادة فى تكوين الراء الاحتكاكية فينتج عن هذا أن الراء التى ينطقونها تكون (متمادة) ، أى يدوم نطقها ما أسعف النفس ، ولكن لايسمع معها احتكاك . فتوصف أنها (متمادة غير احتكاكية) .

(٩) أشباه الصوائت (أو : أنصاف الصوائت) Semi - Vcwels — وهى عند غيره تسمى حروف اللين ، مثل الواو فى الفعل وَعَد والياء فى الفعل المضارع يعِد .

---

(١) علم اللغة ، ص ١٩٦

وفى تصنيف الحروف حسب مايسميه الدكتور السعران « موضع النطق » ويسميه الآب فليش « منطقة النطق » يقول : « وفيما يلى مواضع نطق الأنواع الرئيسية للأصوات الأساسية فى لغات العالم [١] :

١ ـ الشفتان : ويوصف الصوت بأنه « شفتانى » ، (كالميم والواو) .

٢ ـ الشفة السفلى والأسنان العليا : ويوصف الصوت بأنه « شفوى سنى » ، (كالفاء والفاء « V») .

٣ ـ الأسنان : ويوصف الصوت بأنه « سنى » (كالتاء والدال والنون واللام) .

٤ ـ مابين الأسنان . ويوصف الصوت بأنه « مما بين الأسنان » ، (كالثاء والذال والظاء) .

٥ ـ اللثة . ويوصف الصوت بأنه « لثوى » ، (كالراء المكررة) .

٦ ـ اللثة ومقدم الحنك الأعلى : ويوصف الصوت بأنه « لثوى حنكى » ، (كالشين) .

٧ ـ مقدم الحنك الأعلى ووسطه : ويوصف الصوت بأنه « حنكى وسيط » . (ولم يذكر المؤلف مثلا له ولعله يريد الجيم) .

٨ ـ أقصى الحنك الأعلى ، ويوصف الصوت بأنه « حنكى قصى » ، (كالكاف والخاء والغين) .

٩ ـ اللهاة . ويوصف الصوت بأنه « لهوى » (كالقاف) .

---

(١) الدكتور محمود السعران، علم اللغة ـ ص١٩٩

١٠ - الحلق . ويوصف الصوت بأنه « حلق » ، (كالحاء والعين) .

١١ - الحنجرة : ويوصف الصوت بأنه « حنجرى » ، (كهمزة القطع والهاء) .

والذى سماه « حنجرى » هو الذى سماه الآب هنرى فليش مزمارى ، بينما « الحلق » عند الدكتور السعران هو « حنجورى » عند الآب فليش ، وهذا مثال لما قدمناه من ضرورة توحيد المصطلح الصوتى واللغوى .

ومخارج الحروف فى العربية حسب وصف سيبويه لها تكاد تكون هى هى عند أحدث الباحثين فى هذا الفرع من البحث اللغوى ، ثم إنها بقيت بالشكل الذى كانت تنطلق به عند العرب ، لدى أكثر من يقرأون أو يخطبون باللغة العربية الفصحى من أبناء الأمة العربية إلى يومنا هذا ، لايشذ عن ذلك إلا نطق الضاد . وهو حرف من الراجح أن العربية الفصحى اختصت به حتى سميت « لغة الضاد » . وليس عندنا من شاهد قديم يخلع عليها هذا الاسم ، فمن أقدم الإشارات إلى ذلك قول المتنبى فى الفخر .

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجانى ، وغوث الطريد

والمتنبى من القرن الرابع الهجرى ، ولكن اهل التسمية بلغة الضاد كانت من قبل جارية على ألسنة اللغويين ، بل لعلها كانت شائعة بين العامة .

والضاد العربية الفصحى لم تعد تنطق فى تمام فصاحتها عند أىّ من

العرب ، فهم ينطقونها أحيانا ظاء بين أسنانية ، كما هى الحال عند كثير من أهل العراق وبوادى الشام والأردن وشبه جزيرة العرب . وهى تنطق فى كثير من المدن العربية كالقاهرة والاسكندرية وبيروت ودمشق وطنجة وتونس دالا مفخمة . وفى بعض الاحيان حيث تكف الظاء عن أن تكون بين أسنانية فتصبح زايا مفخمة ، تنطق الضاد مثلها . فالفعل « ضرب » مثلا ، ينطق دالا مفخمة فى مصر ، وفى كثير من أرجاء العراق والكويت ينطق « ظرب » بالظاء بين الاسنانية وهو ينطق « زرب » بزاى مفخمة فى أرجاء من ليبيا وغيرها . فاذا ما تركنا العربية الفصحى ، وذهبنا نبحث فى العامية عن الألفاظ التى أصلها بالضاد ، وجدنا فى عامية المصريين أنها لاتنطق على قاعدتها القديمة عند العرب أبدا ، وانما تنطق دالا او زينا مفخمتين ، فكلمة « بيضة » ، أو « ضحك » أو « غرض » تنطق دالا مفخمة بينما لفظة « ضابط » تنطق زايا مفخمة « ظابط » . وقد وصل هذا الخلط لدرجة أن بعض الفصيح الذى أصله ظاء ينطق ضادا ، من هذه الضاد المحرفة التى ليست غير دال مفخمة ، فالعوام يقولون « صلاة الضهر » بدلا من « الظهر » ، بل قد ينطقونها دالا بلا تفخيم فيقولون « ديّق » بدلا من « ضيق » ويصفون الشعر بأنه « مدفّر » بدل « مضفر » .

ويصف ابن منظور الضاد العربية بقوله : « الضاد [1] حرف هجاء ، وهو حرف مجهور ، وهو أحد الحروف المستعلية ، يكون أصلا ، لا بدلا

---

(١) لسان العرب ، مادة (ضاد) .

ولا زائدا . والضاد للعرب خاصة ، ولاتوجد فى كلام العجم إلا فى القليل » .

أما سيبويه فانه وصف صوت الضاد الفصيحة بأنه يخرج من بين أول حافة اللسان (من جهة أقصى الحنك) ومايليه من الأضراس [1] . ثم ذكر هذا الصوت بين الأصوات المجهورة ، وعرف المجهورة فى اصطلاحه لا بأنها التى يعمل فيها الوتران الصوتيان وإنما كل منها « حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ، ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت ، فهذه حال المجهورة فى الحلق والفم » ومع ذلك فمفهوم كلامه أن الحرف المجهور هو الذى يعمل فيه الوتران الصوتيان ، لأن الحرف الاحتباسى أو الانفجارى يسمى عنده الشديد « وهو الذى يمنع الصوت أن يجرى فيه » ، وقد جعل نقيضا لذلك الحروف الرخوة ؛ وهى التى يجرى فيها الصوت ، وعد منها الضاد . كذلك عد الضاد من الحروف المطبقة ، ويعنى بذلك المفخمة ، ويجعل نقيضها الحروف المنفتحة . ويذكر فى الحروف المطبقة الصاد والضاد والطاء والظاء ، والعجيب أنه لايذكر منها القاف وهى فى لغة العرب مطبقة كما هى فى بقية اللغات السامية ، ذكر ذلك بروكلمان ، وسيجال ، وبورشتاين [2] . ولكن على

---

(١) كتاب سيبويه ــ الموضع السابق ذكره

(2)C.Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, I. Band - Laut und formenlehre - Berlin, 1908 =

عهد سيبويه نفسه يبدو أن الضاد كانت مشكلة فى نطقها ؛ فقد ذكر إلى جانب الضاد الفصيحة صوتا يسميه « الضاد الضعيفة » ووصفها بأنها « تتكلف من الجانب الأيمن ، وان شئت تكلفتها من الجانب الأيسر ، وهو أخف ، لأنها من حافة اللسان ، مطبقة . لأنك جمعت فى الضاد تكلف الاطباق مع إزالته عن موضعه ، وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذى فى اليمين ، وهى أخف لأنها من حافة اللسان ، وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها ، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان ، فسهل تحويلها إلى الأيسر ، لأنها تصير فى حافة اللسان فى الأيسر إلى مثل ما كانت فى الأيمن . »[1] وهذا الوصف على شدة تعقيده يمكن تلخيصه فى أن هذه الضاد الضعيفة لاتخرج من اعتماد مؤخر اللسان من جانبيه على الأضراس ، فى منطقة أقصى الحنك كالضاد الفصيحة ، ولكن ترتكز فيها حافة اللسان فى نقطه أكثر تقدما نحو سقف الحنك الصلب على الأضراس الامامية ، سواء أكان هذا الارتكاز على الناحية اليمنى أم اليسرى . مع ترك الهواء يخرج من الناحية الأخرى التى لا ارتكاز فيها ، مع إعداد مؤخر الحنك للاطباق .

وبعد فما تزال فى الضاد من حيث علم الأصوات - (الفونيطيقا) - وعلم الدلالة الصوتية - (الفونولوجيا) - متاهات لم يقل العلم فيها كلمته

= م . ص . سيجال : أسس الصوتيات العبريه - (باللغة العبرية) - القدس ١٩٢٨ .
إسرائيل بورشتاين : أحكام النطق - (باللغة العبرية) - القدس ١٩٤١
(١) كتاب سيبويه ، نفس الموضع .

الأخيرة . فهناك من ذهب من العلماء إلى القول بأن الضاد كانت موجودة فى اللغة السامية الأم ولكنها كانت صوتا مزدوجا من قاف وسين « قساد »[1] ، وحجتهم فى ذلك أننا لوأخذنا كلمة فيها ضاد عامة شائعة فى كل اللغات السامية ، ولتكن كلمة « أرض » العربية لوجدناهـا فى العبرية « أرص » بالصاد ، وفى البابلية الآشورية « أرسيتو » بتفخيم فى السين أحيانا ، وفى الحبشية « أرد » ، وفى الآرامية « أرعا » أو « أرقا » . واستخلصوا من ذلك أنها لابد أن تكون صوتا من أقصى الحنك الرخو عند منطقة اللهاة ؛ بدليل أنها تحولت إلى عين وإلى قاف فى الآرامية ، يتبعه مباشرة صوت سنانى ، فكان هذان الصوتان هما عند أولئك العلماء القاف والسين ، وقد تأثروا فى ذلك بنطق اليهود الاشكنازيين (يهود شرق أوربا وسطها) لحرف الصاد صوتا مزدوجا مكونا من تاء وسين . والراجح عندنا أن السامية الأم لم تكن تعرف الأصوات المركبة على هذا النحو ، وأن الضاد كانت عندهم صوتا مركبا بشكل آخر هو اعتماده على نقطة خروج لسانية سنانية من نوع الياء ، مع تفخيم يصل الإطباق فيه مع الجهر إلى تحويل هذا المخرج إلى مزيج مع صوت حلقى . ولذا كان النبط والآراميون بعامة ينطقون مقابل هذه الضاد فى لغتهم عينا . بل لقد نطق العرب الضاد فى بعض الكلمات بنطقهم الفصيح .

---

(١) ذكرنا منهم الثلاثة الذين سميناهم حالا .

ثم تحول عند الآراميين إلى عين وجاء من جـــديد إلى العرب بنطقه الجديد : ومن أمثلة ذلك :

(البيعة) وهى المعبد الصغير للنصارى واليهود . ولا علاقة لهذه الكلمة بالبيع والشراء ، وإنما هى مأخوذة من شكل القبة التى كانت تعلو هذه المبانى وتميزها ، وتسمى البيضة على سبيل التشبيه ، كما سميت خوذة المقاتل بيضة . ولما كانت هذه المعابد قد انتشرت فى مناطق من دنيا الساميين تفشت فيها الآرامية ، ودان أهلها بالمسيحية أو اليهودية ، فقد نطقت البيضة عندهم بالعين الحلقية ، (بيعة) ، وعادت إلى العربية بهذا النطق .

(الضأن) ومعناه فى العربية جنس الغنم ، وهو فى العبرية بالصاد ، أما الآراميون فينطقونه (عانا) بالعين الحلقية بدل الضاد . وهذه اللفظة قد دارت هى أيضـــا فى نفس المجال الآرامى ، ثم عادت إلى اللغة العربية مع تغيير طفيف ، فقد صارت (عانة) كما صار معناها القطيع ، لا من الغنم ولكن من الحمر الوحشية .

فنحن إذن نختلف مع الذين قالوا إن الضـــاد ، التى هى من أخص خصائص العربية الفصحى ، لم تكن موجودة بلفظها هـــذا فى السامية الأم ، بل إننا نرى أن العربية بحفاظها على الضاد ربما اعتبرت هـــذا مفخرة لها ، لتواتر حرف من حروف الأسلاف الأول على لســـان العرب ، انقرض تماما لدى غيرهم من الساميين .

أما من ناحية الدلالة الصوتية ، (الفونولوجيا) ، فهنـاك ملاحظة

يستوقفنا ، وندعونا إلى التفكير وهى أن كثيرا من الألفـــاظ التى جاءت فيها الضاد يوجد مثلها وفى موضع الضاد حرف آخر ، وهناك بين اللفظتين علاقة فى المعنى .

فلفظة (السبع) تجاورها لفظة (الضبع) ، وهى نوع حقـــير من السبـــاع .

والفعل (ضبث) بالشىء وعلى الشىء معناه قبض عليه قبضا شديدا وتشبث به فهذه المادة (ض ب ث) تجاورها مادة (ش ب ث) .

وكذلك مادة (ض ح و) التى تفيد الاشراق تجاورها مادة (ص ح و) بنفس المعنى تقريبا ، ومن الأولى جاء (الضحى) ومن الثانية (الصحو) .

وقالت العرب « ضحضح » الأمر أى تبين ، وكذلك « صحصح » بالصاد . ومادة « ضخّ » مرتبطة فى المعنى والمبنى بمادة « سحّ » .

وتقول العرب « ضرع » الفارس جواده ، أى أذله ، وهو قريب من قولهم « صرع » الفارس عدوه .

و «ضفّ» القوم على الماء أو الطعام : ازدحموا . و « ضفّ » الرجل الشىء ضفا : جمعه ، وهو قريب من مادة « صفّ » .

وأفعـــال مثل « ضمّ » و « لمّ » ، و « ضهس » و « داس » و « دهس » و « دعس » و « تضور » و « تهور » و « ضاع » و « ساع » و « صـــاع » .

فعندما نقول إن اللغة العربية هي « لغة الضاد » ، فإننا نستحضر تاريخا سحيقا ضاع من الوثائق ، وبقى فى عجينة الألفاظ وفى معانيها وفى أصواتها ، يشهد بأن العربية الفصحى أبعد مدى وأرسخ قدما فى علاقة الإنســـان باللسان مما سجله علماؤها ، الذين قيدتهم النصوص ، ورواية الرواة فلم يستطيعوا خرق حائط الجاهلية الأخيرة وهو إلى الآن قائم ، ولعـل صدفة من صدف التنقيب عن النفط فى شبه الجزيرة العربية تسفر عن شىء هو أغلى على الإنسانية ، وعلى تاريخ العرب بالذات ، من النفط .

أما الحركات أو « المصوتات » أو « الصوائت » فإن الكتابة العربية قد اختصرتها إعتمادا على سليقة القارىء من أبناء هــــذه اللغة . وقد لاحظ ذلك كل من تناول الحركات من العلماء قديما وحديثا ، فالأب هنرى فليش مثلا يقول [١] :

« يلاحظ فى علم الأصوات وجود تناقض بين عدد الصوامت الضخم (٢٨) ، وذلك العدد القليل من المصوتات (فتحة وكسرة وضمة ـ a u i) قصيرة كانت أم طويلة . ومن المحتمل أن تشير هــــذه المذكورات إلى منـــاطق نطقية فحسب ، ثم يرد عليها فى الاستعمال تغييرات (بحسب القبائل) ، فتصبح الضمة الخالصة (u) ضمة مفتوحة

---

(١) العربية الفصحى ص - ٣٥

(o) ، وتصبح الكسرة الخالصة (i) كسرة قريبة من الفتحة ـ ممالة (e)، وذلك نحو : يكتب (yaktub) إذ تنطق أحيانا (yaktob) ؛ ونحو : يحمل (yahmil) إذ تنطق (yahmel) ، ولكن ذلك لايغير المعنى فى شىء . ومن ذلك الإمالة التى تجعل الفتحة الطويلة الخالصة(ā) ـ وهى ما يعبر عنه بألف المد ـ فتحة طويلة ممالة ( ) ، و « التفخيم الذى عرف فى الحجاز ، وهو الذى يجعل الفتحة الطويلة (ā) ضمة طويلة مفتوحة (ō) ، فهاتان الظاهرتان الصوتيتان لاتحدثان أدنى التباس فى المعنى . وانظر ما كتبه ج. كانتينو J.cantineau فى كتابه محاضرات فى علم الأصوات العربى Cours de phonétique arabe — (الجزائر ١٩٤١) ، حيث وصف الكتابة العربية بأنهـــا كتابة تنظيمية ، قال : إنها لاتهتم إلا باختـــلافات النطق ، التى ينتج عنها تفرقة بين الصيغ النحوية أو الكلمات .

ومع ذلك ففى العربية مصوتان مزدوجان هما : أو aw ، وأى ay فى مثل قَوْم ، ولَيْل .

وهذه المصوتات أو الحركات المزدوجة لم تكن تعامل عند العرب بالطريقة التى يعاملها بها المحدثون ، فإن كلمة « قوم » عند اللغويين القدامى لاتحتوى على صائت مزدوج وإنما على صامت ضعيف هو حرف اللين ، وهو هنا الواو كما أنه الياء فى ليل . ويدافع الأب فليش عن هذه الفكرة فى المذكرة التكميلية الأولى لكتابه « العربية الفصحى » فيقول بعد أن يشير إلى تعريف علماء الأصوات للمصوت المزدوج

مستعيراً ذلك من موريس جرامونت فى كتابه « دراسة فى الأصوات اللغوية Traité de Phonétique باريس ١٩٣٣ » وهو أن هذا المصوت المزدوج عبــــارة عن « مصوت واحد ، يغير جرسه أو رنينه خلال إصداره ، وينطق مع ضغط هابط » . يتساءل الأب فليش : كيف يتحقق هذا التعريف للمصوت المزدوج فى العربيـــــة ، فى أوْ aw وأىْ ay ؟ . . والواقع أن أفعــــالا مثل حوقل (= هَرِمَ) - من (حوقل) ، وشيطن (= فَعَل فعل الشيطان) - من (شيطان) - تسلك فى تصريفها مسلك الفعل الرباعى ، مثل : « دحرج » أو « قطرن » من (قطران) . فالواو والياء لهما هنا قيمة الصوت الصامت الثانى من الأصل الرباعى . « وقول » و « بيع » هما مصدران بزنة فَعْل ، لفعلى « قال يقول » و « باع يبيع » ، تماما كما يأتى كَتْب من كَتَب ، أو تَرْك من تَرَكَ . والواو والياء فى هذا الموضع هما الصامت الثـانى من الأصل الثلاثى ، فإما أنه ليس فى هــذه المواضع مصوت مزدوج ، أو أنه يجب أن نراجع التعريف السابق ذكره .

وقد جرت العادة بوصف « أو » و « أى » على أنهما مصوتان مزدوجان فى العربية .

وسنظل على هذا الوصف إلى أن تتاح لنا معرفة أوسع وأشمل . ولكننا نتعرض بهذا لتعارض منطقى illogisme . فنحن نضع الأفعال التى بوزن فوعل وفيعل بين الأفعال الرباعية كما يقتضيه تصريفها ، ونضع الأسماء الصفات — بوزن فوعل وفيعل فى المجموعة الثالثة ، التى أصلها ثلاثى ، ثم يزاد فيـه مصوت طويل أو مصوت مزدوج بعد الصامت

الأول ، ومصوت قصير بعد الصامت الثانى . فهل يجب أن نضعها بين الأسماء الرباعية ؟ (لم يقل لنا علم النحو أو الصرف شيئا فى هذا الموضوع) .

ولكن كيف ينبغى أن ننظر إلى الصيغة التى بوزن فُعَيْل و فُعَيِّل ، فِعَّوْل ... ؟ إن الحل الوحيد الآن هو أن نصل هذه الصيغ : فوعل وفيعل الخ ... بالأصل الثلاثى مزيدا فى مصوت مزدوج (أنظر بروكلمان Gr., I, pp, 344, 352, 362) ، وفى حالات مثل أَوَّل وَبَيِّع سوف يقول علماء الأصوات: أن مصوتى الضمة(u) والكسرة (i) يتحققان بالنظر إلى وضعهما فى مجرد واقع خاص ، هو أن لهما من الناحية الصرفية وظيفة الصامت . ولكن إذا كنا نرى أن المصوتات والصوامت فى العربية مختلفة فى أساسها بسبب دورها الصرفى ، فكيف لانرى فى الواو والياء الصامتين سوى واقع خاص لمصوتى الضمة والكسرة ؟ ان الوظائف الصرفية تتعارض كلية ، فكما أن المصوتات والصوامت تعملان على مستويين مختلفين لايلتقيان ، فكذلك أدوات هذا التعارض ينبغى أن تتعارض كلية أيضا . » [1] هذا نص ما علق به الأب هنرى فليش فى إنكار الحركات المزدوجة التى يسمى الواحدة منها « المصوت المزدوج » وهو قد أشار إلى تعارض ذلك مع مايقرره علماء الأصوات مستشهدا منهم بتعريف موريس جرامون .

---

(١) العربية الفصحى ، للاب هنرى فليش ص ١٩٧ — ١٩٨

ويكاد المرحوم الدكتور محمود السعران [١] يتفق مع جرامون ، فهو يفرق بين الحركة البسيطة (واسمها عنده : الصائت) والحركة المزدوجة (واسمها عنده : الصائت المركب) بأن أعضاء النطق فى حالة الحركة البسيطة تظل فى موضعها الخاص مدة ملحوظة من الزمان بينما فى الصائت المركب يحدث ارتباط بين صوتين صائتين بسيطين ينطقان بحيث يكونان مقطعا واحدا لا مقطعين . وهو فى واقع الأمر (صوت انزلاقى) ، إنه صوت صائت يتضمن انزلاقا مقصودا ، إذ تبدأ أعضاء النطق متخذة الوضع الخاص بصائت من الصوائت ثم تنتقل مباشرة نحو الوضع الخاص بصائت آخر . ويميز (الصائت المركب) كذلك أنه يتكون من (مقطع) واحد ، أى أن (الانزلاق) ، أو (الانتقال) ، من الصائت الأول إلى الصائت الثانى ينبغى أن يتم بدفعة واحدة من النفس . أما إذا تم هذا (الانزلاق) بأكثر من دفعة واحدة من النفس فان السامع يسمع مقطعين اثنين متواليين لا مقطعا واحدا : ويسهل إدراك هذا بأن ننطق نطقا بطيئا (الصائت المركب) الانجليزى (a i) ثم ننطق الصوت الصائت الانجليزى (a) وبدفعة جديدة من النفس نتبعه بنطق الصائت الانجليزى (i) ، دون أن نبدأ هذا الصائت بهمزة قطع ، وهذا أصعب على أصحاب العربية إذ لا تبدأ كلمة عربية بصوت صائت غير مسبوق بصوت صامت - سنجد أن نطقنا لـ (a i) بدفعة واحدة من النفس يكون مقطعا

---

(١) علم اللغة - ص ٢٠٣

واحداً ، (وهو صائت مركب) ، أما نطقنا للصائتين بالصورة التى مثلنا ثانية فسنجد أنه يكون مقطعين ، وهو لذلك ليس (صائتا مركبا) .

ونفهم من ذلك أن مثلث الحركات الذى وصفناه بأن كل زاوية منه تعدد حركة من الحركات الأصلية : الفتح والضم والكسر ، إذا انتقل الناطق بين زاويتين منه ، أى من الفتحة إلى الضمة أو من الضمة إلى الكسرة أو من الكسرة الى الفتحة ، أو العكس ، وكان انتقاله بين رؤوس المثلث قفزا وأنزلاقا فى دفعة نفس واحدة كان ذلك هو الحركة المزدوجة ، وقد رأينا أنها غير موجودة فى اللغة العربية ، بل الموجود هو حروف اللين ، وهى صوامت لاحركات ، سواء أجاءت ساكنة مثل قَوْل وَبَيْع أو متحركة مثل عواقب وهياكل .

وقد لاحظ علماء الأصوات فى الصائت المركب أنه يجمع بين (طرفين) هما رأسين من مثلث الحركات وأضافوا - والعبارة هنا نقلا عن الدكتور السعران - أنه (قد لوحظ أن أحد طرفى الصائت المركب يكون عادة أشد بروزا أو جهارة من الطرف الآخر . والصائت المركب يسمى (هابطا) أو (نازلا) أن كان طرفه الأول أبرز أو أشد جهارة من طرفه الثانى - أى أنه سمى كذلك باعتبار مايصير إليه . ويسمى (صاعدا) أو (طالعا) إن كان طرفه الثانى أبرز أو أشد جهارة من طرفه الأول . وتتصف الصوائت المركبة الانجليزية جميعا بأنها صوائت مركبة هابطة) . [1]

---

(١) نفس الموضع .

والآن وقد عرفنا أن الصائت المركب ليس هو حرف اللين فإننا نريد فى إشارات عابرة أن ننبه إلى بعض ما ترتب على ذلك فى خصائص البنية فى بعض الألفاظ العربية .

هناك ألفاظ ثلاثية وسطها ياء مثل بيت وعين ، وهذه الألفاظ كانت قد تطورت من حيث النطق فى لغات سامية أخرى غير العربية بحيث أصبح لها نطقان بل ثلاثة . فالنطق الأول والأصلى الذى يقابل النطق العربى أصبح فى العبرية مثلا : (بَايِتْ) و (عَايِنْ) بفتحة ممدودة على الحرف الأول وكسرة قصيرة على الياء . ولكن هذا النطق يتحـــول إلى إمالة فى حالة الإضافة فينطقون فى العبرية بيت وعين (كنطقهما فى العامية المصرية وفى عاميات أخرى مماثلة فى العالم العربى) أما النطق الثالث فهو فى حالة جمع المذكر السالم الذى يكون باضافة ياء وميم فى آخر الاسم فى اللغة العبرية ، وهنا لا يقولون (بَيْتِيم) ولا (بَاْيتِيم) ولكن (بَاتِيم) بفتحة طويلة صريحة غير ممالة وبدون ياء . أما إذا كان الاسم من ذوات الواو مثل (قول) أو (عوف) فإنه فى كل الحالات قد حرف إلى امالة مضمومة كنطقنا الواو فى العامية المصرية فى كلمة (اليوم) أو (النوم) ... والخ . والآرامية تسير بدورها فى هذا النهج المتطور ، وهنا دليل آخر على شده التصاق العربية بالسامية الاولى .

ولكن التصاق العربية هذا ببداياتها لم يمنعها من التصرف أحيانا ، وإحداث صيغ لا يقوم الدليل على وجودها فى غيرها من اللغـــات السامية ، ومن هذه الصيغ صيغة فُعَيْل للتصغير . فاللغـــات السامية

الأخرى ليس فيها تصغير قياسي مرتبط بصيغة صرفية من هذا النوع . ولو أننا أنعمنا النظر لوجدنا بصيصا من نور قد يهدينا إلى أصل هذه الصيغة التي صارت من خصائص العربية في بنية ألفاظها ، كالضـــاد في أصواتها .

يلاحظ أن في العربية أسماء شائعة على وزن فُعال ، بضم الفاء وفتح العين ثم ألف مدّ بعدها ، وفُعالة ، المؤنث . أما الوزن الأول (فُعال) فأكثر ما يأتي لما يُستكره أو يُستقذر أو يُحتقر أو يُستصغر : فمن ذلك الدُوَار الذى يصيب الإنسان إذا ركب البحر أو علا فى الجو أو فقد قوته ، والصُداع والخُمار ، وهو صداع الخمر ، والكُباد ، وهو وجع الكبد ، والسُعار وهو المرض النـــاتج عن عضة الكلب وغـــيره من الحيوانات التى تنقل هـذا المرض ، والسُعال وكل ذلك مما يستكره . وجاء من هـذا الوزن البُصـاق ، والمخُـاط ، والعُطاس ، والفُساء وكل ذلك مما يستقذر ، والبُغـاث ، والجُفـاء ، والغُبار ، والسُخام ، والهُراء وكلها مما يحتقر ، والغُلام ، والقُراد ، والغُراب مما يستصغر .

فإذا ما انتقلنا إلى المؤنث من هذا الوزن وهو (فعالة) ، وجدناه يدل دائما على البقية من الشيء ، والحقير منه ، وما يستصغر ويهون أمره أو يستكره ويبعث على التقزز والنفور : فمن بقـايا الأشياء الفُتالة ، والثُمالة ، والبُرادة ، والنُشارة ، والنُخالة ؛ ومما يهون أمره ويحتقر النُفاية ، والقُمامة ، والكُناسة ، وغير ذلك كثير .

وقد سبق أن عرفنا أن الإمالة نحو الكسر فى ألفات المد كانت شائعة ، لا تنفر منها الآذان ، وقرئت بها قراءات معتبرة فى القرآن الكريم .

ومعنى ذلك أن صيغة فُعال هذه التى تدل على التصغير والتقليل والتحقير ربما ألفتها - فى الجاهلية الأولى - أسماع كثير من العرب ، ثم جنحت بها من الامالة إلى حرف اللين بالياء الساكنة ، فوجدنا وزن فعيل بضم ففتح ومؤنثه فعيلة وقد أصبحا قياسيين فى التصغير .

- ٢ -

نمو الثروة اللفظية فى العربيـة

من أوجه ما قيل فى أصل الكلام إن اكتشـــاف الإنسان للطاقة الكامنة فيه والتى تؤهله لصنع وسيلة للتفـــاهم بوساطة صوته الطبيعى ، جاء على الأرجح أثناء قيامه بعمل جماعى شاق ، فجاءت المقاطع اللغوية الأولى أصواتا ماحنة لا تنطوى على معنى جزئى ، وإنما تهـــدف إلى غرض كلى جماعى هو توقيت الجهد العضلى للجماعة المتعاونة ، وتنسيقه على إيقـاع صوتى معين ؛ ثم جاء بعـد ذلك الدور التحليلى ، وهو تسمية الأشيـاء بأسمائها ، وكان على الأرجح كذلك على صورة جمـل كاملة لا ألفاظ ، لأن الفـكر الانسانى لم يبدأ بإدراك المفردات مجردة ، بل موضوعة فى ملابسات لاحظها فعبر عنها . أى أن الجملة المركبة كانت هى العملة التى ينفق منها الفـكر ، وبها يحوز ممتلكات جديدة فى الـكون الواسع المحيط به . وكانت هـذه الجمـل تنطبق على تجسيم مادى خارجى لمضمونها ، هو تلك الملابسات التى كان يلاحظها الإنسان . ثم تلا ذلك تقسيم أدق ، تطلق فيه أسماء معينة على الأشياء ، بحيث تتحدد بها هذه الأشياء وتتميز ويمـكن استخراجها والتعرف عليها ، هى والألفاظ التى تصور الملابسات المسجلة فى تجربة الإنسان من أفعال وروابط لفظية مختلفـة .

وكان الاسم الذى يطلق على شىء ما شاهدا على وجود هذا الشىء ،

ولهذا نجد فى كثير من اللغات القديمة تعبيرات باقية من تلك الفترة ، كقولهم فى اللغة البابلية مثلا إذا أرادوا أن يعبروا عن مفهوم عبارة « كل شىء » ــ « كل ماله اسم يسمى به » ، وكناية عن الهلاك والبوار كانوا يقولون « لم يعد له اسم » . والعـوام فى بلادنا مايزالون إذا تحدثوا عن مخلوق شديد الأذى كريه على النفوس يقولون : « اللى مايتسمّى » .

وإذا كان الاسم فى لغة الرجل القديم قـد اقترن بوجود المسمى ، فلا عجب إذن من أن نجد الأسماء القديمة كلها كانت لمسميات محسوسة؛ ولا عجب أيضا أن الأسماء فى اللغات القديمة لم تكن تحتاج إلى أداة التعريف ، فهى معرفة بالتجربة الحسية ؛ وإنما ظهرت أدوات التعريف فى اللغات بعد ذلك ، عندما وصل العقل البشرى إلى إدراك وجود المجهول أو الشائع غير المتعين ، مما نسميه فى النحو « النكرة » .

كذلك راح الفكر الفلسفى عند البشر يزداد رقيا ، وبدأ الإنسان يتطلع إلى الغيبيات والمعقولات والمجردات ، وكان عليه حينئذ أن يجعل لهـا أسماء تعبر عنها ، فنقل كثيرا من أسماء المحسوسات إلى دلالات معنوية ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى حديثنا عن علاقة اللغة بالفكر[1] . ولمزيد من التذكرة بهذا المنحى من نمو الثروة اللفظية ملاحظا فى لغة العرب سنأخذ أمثلة أخرى .

وسنبدأ منها بلفظة « الشك » ، وهو فى الأصل الوخز بشىء دقيق مدبب كالشوكة أو الإبرة . وشعور الإنسان بهذا الوخز فى جسمه مؤذ

(١) الدكتور حسن ظاظا : اللسان والانسان — الاسكندرية ١٩٧١ .

غير مريح . وكثيرا ما يحدث أن يشعر الإنسان بوخز — أى شك فى جسمه — يتعبه ويؤلمه ، كما يتعبه العثور على الشىء الدقيق المدبب الذى يسبب له هذا الألم . لذلك كان من الطبيعى أن تنقله اللغة من هذا المعنى الحسى إلى المعنى الفلسفى ، وهو الحيرة والتوقف بين طرفى قضية معينة نفيا وإثباتا ، وهو موقف متعب للنفس والعقل كما أن شك الابر متعب للجسم ، وإذا كان الشك الحسى ينتهى بالعثور على الشوكة أو الإبرة المتسببة فيه ، فان الشك الفكرى لاتنتهى متاعبه إلا بالوصول إلى راحة اليقين وطمأنينة الركون إلى رأى أكيد .

هناك أيضا « الخير » و « الشر » : فالخير أصله ما يفضله الإنسان لنفسه ، أى ما يختاره ؛ ذلك أن الانسان بما جُبِل عليه من الأنانية أولا ، والتعلق بالتقدم ثانيا ، لايختار لنفسه إلا الأحسن والأفضل . ومن هنا كان الخير هو الاتجاه الذى يجب أن يختاره العاقل لانه الأحسن والأمثل ، ثم أطلق فى الفلسفة على الجانب الفاضل فى السلوك الأخلاقى ، الذى يعادل الحق فى المنطق والفكر ، والجمال فى الذوق والوجدان أما الشر فلعل أصله من شرار النار ، التى تركت فى العبرية والآرامية لفظة « سر » بالسين بمعنى « غاضب » ، « غير مسرور » « مغتاظ »[1] ، ثم جاء الشر الفلسفى بمعنى ما لايحمد ولا يسر ولاتحسن عاقبته .

---

(1) sander & Trenel Dictionnaire Hébreu - Français - Paris 1859. p 497

و « العقيدة » أيضا لها مع الحس تاريخ طويل ، فأصل العقيدة الشيء الثمين يعقد عليه الإنسان منديله حتى لايضيع ، أو الأمر الهام يعقد الإنسان على إصبعه الخنصر خيطا من الصوف حتى لاينساه ، وكان العرب يقولون عن الأمر الهام « أمر يعقد عليه بالخناصر » . ثم أصبحت العقيدة مايستقر فى القلب من أمور الفكر والرأى ، ثم أصبحت تعنى مايفرض الدين تصديقه والإيمان به وعدم التفريط فيه .

« الشرع » ، أصله الاتجاه نحو الشرعة (بكسر الشين) وهو مورد الماء ، والطريق المؤدية إليها تسمى المشرع (بفتح الميم والراء) والشارع . فالشرع إذن كان فى بدايته الاتجاه نحو مورد الماء ، وهو النهج الأمين الذى يسير فيه الناس فلايعودون خائبين ، ولايتعرضون للهلاك ، وهو عادة درب واضح مأنوس مطروق . فنقل اللفظ للدلالة على القانون الذى ينظم حياة الناس فرادى وجماعات فلا يضلون ، وهكذا تم انتقال دلالة هذه اللفظة إلى معنى حضارى يختلف عن المعنى الأول ، وبقى لها المعنيان .

« الإبهام » ، وهو الغموض . والأصل فيه الظلام الكثيف الذى لايمكن فيه تمييز الأشياء ، ومنه قيل « الليل البهيم » أى الشديد الظلمة ، ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن الغموض ، هو أيضا ، من إغماض العينين بحيث لايرى الإنسان شيئا . والإبهام ، بمعناه الفكرى ، هو حالة يعجز أمامها الفهم والإدراك . وسميت الحيوانات « بهائم » لأنها لاتتكلم ، أى لا تفصح عن نفسها بحيث يفهمها الإنسان .

ويحدث أحيانا تغيير صوتى ضئيل طفيف عند تنويع المعانى رغبة فى تأكيد الفرق بين المعنيين المتقاربين ومثال ذلك :

الفعل « بدأ » يدل على السبق إلى عمل ما يكون فاعله هو الأول فيه لا أكثر ، بينما الفعل « بدع » يعنى بدأ شيئا عجيبا فى الخير أو الشر ، وهذا الشيء « بديع » إذا كان مستحسنا ، وهو « بدعة » إذا كان مستقبحا مستنكرا . وأما الفعل « بده » فهو بمعنى بدأ ولكن مبادرة وبدون تخطيط سابق . أى على « البديهة » .

وكذلك الفعلان « بذر » و « بذل » . فالثانى يستعمل فى المعنويات كثيرا ويستعمل أيضا فى الماديات لكن دون تصور اليد التى تنثر ذات اليمين وذات الشمال كما نتصورها مع الفعل « بذر » .

كذلك يجرى هذا التغيير فى حروف مادة معينة من حيث ترتيب هذه الحروف فقط ، وهو مايسميه ابن جنى بالاشتقاق الكبير .

ومثال ذلك الفعل « لكم » أى ضرب بجمع يده فأوجع . والفعل « كلم » أى ضرب فجرح ، و « الكلام » يسمى كذلك لأن كل « كلمة » منه تحدث أثرا فى سامعها ، لذيذا أو أليما ، بينما الحديث هو إحداث تفاهم مع الآخرين ، والنطق هو إخراج الكلام من الفم ، واللسان ، وهو اسم العضو الذى يؤمّن وظيفة التذوق وجزءا كبيرا من عملية الكلام ، قد استعمل كثيرا بمعنى اللغة . وهذه اللفظة الأخيرة تلتقى بالأصل العربى « لغا ، يلغو ، لغوا » أى أخرج صوته بما لاطائل فيه ، ومع ذلك

فنحن نرى رجحان مجيئها من الأصل اليونانى « لوغوس Logos » بنفس المعنى . ونحن نعلم أنه عندما ارتقى العلم على عهد الدولة العباسية استعمل العرب « المنطق » من مادة « نطق » للعلم الذى يبحث فى معايير الفكر ، ولفظ « الكلام » للعلم الذى يبحث فى أصول الدين وإثباتها بالعقل . وما إلى ذلك من معان فكرية غير مادية .

وهكذا يتبين من الأمثلة الآنفة الذكر أن أول نوع من الاتساع اللغوى كان يحتمه تطور الفكر ، وهو التعبير عن المجردات أو المعنويات بألفاظ منقولة عن الحسيات .

وهناك طريقة ثانية فى التوسع اللغوى تكون بتلخيص أصوات الطبيعة ، ومحاكاتها فيما يسمى الألفاظ ذات الجرس المعبر ، وكان الظن قديما أن هذه الألفاظ المعبرة عن معناها بأصوات حروفها ، هى أقدم صور الاصطلاح اللغوى على الإطلاق ، والأدلة كثيرة على ما يحيط بهذا الظن من تعميم يصل به إلى البطلان ، ومن أهمها ملاحظات العالم الامريكى إدوارد سابير[1] حول لغات البدائيين وكونها ليست أغنى من اللغات المتقدمة فى الحضارة فى هذا النوع من الألفاظ ، يضاف إلى ذلك أن العالم المحسوس ينطوى على كثير من الموجودات الصامتة التى لاجرس لها ولا صوت ، وهذه تفوق فى كثرتها ما له صوت وضوضاء بأضعاف مضاعفة . ففى الغابة مثلا من صنوف النبات وألوانه ، وأشكال الارض والغياض والغدران ، والسماء بسحبها وكواكبها ، والحشرات والطيور

Edward Sapir; Le Langage - Introduction à l'Etude de (1) la Porole; Traduction de S.M. Guillemin, Payot - Paris 1953; p. 15 ss.

والحيوانات ما لا يعد ولا يحصى بجانب الخرير والحفيف والوقزقة والعواء ونحوها من الأصوات الطبيعية التى يمكن سماعها فى الغـابة ، فضلا عن الألوان المختلفـة ، والروائح المتعـددة ، ومظـاهر الطقس الكثـيرة وغير ذلك .

ومع هذا فاللغات تحتوى بشكل عام على قدر لا بأس به من الألفاظ المعبرة بأصواتهـا ، ورد كثير منها فى ثنـايا كتب علم اللغة وفقه اللغة ، والفونولوجيا أو علم الدلالة اللغوية للأصوات ، كما جاء كثير من ذلك فى كتب العربية التى عنيت بخصـائص لغتنا ، وتصنيف الألفاظ فيها ، فمن ذلك :

الألفاظ الدالة على أصوات الحيوانات وضوضاء الأشياء : يقال نباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، ومواء القطط ، ونهيق الحمير ، وصهيل الخيل ، وخوار البقر ، ونعيب الغراب ، ونقيق الضفـادع ، وهـديل الحمام ، وزئير الأسد ، وفحيح الأفعى ، وطنين الذباب ودنينه أيضـا . كما يقال ظأب التيس ، وقبع الخنزير ، وزبط البط ، ووع الطفل ، إذا بكى ، وابن آوى إذا صاح ، وثأج الخروف ، وقاقت الدجاجة ، وقأقأت وقوقأت أيضا ، وزقح القرد . ويستعمل الحفيف لأوراق الشجر ، والصليل والقعقعة للسلاح . ويقـال هزيم الرعد ، وطنين الطبـل ، وصلصلة الجرس ، وزفير النار ، وفرقعة الأصابع ، وأزيز القدر عند الغليان ، ونشيش اللحم عند قليـه .. الخ .

الأصوات الدالة على بعض أفعال الإنسان : مثل شرب ، رشف ، لحس ، مص ، سعل ، تفل ، بصق وبزق ، تجشأ ، نفخ ، بح ، بخ ، فح ، عطس ، همس ، أن ، تأوه ، ناح ، صاح ، صرخ ، زعق ، ضج ، هيج

أح (بمعنى سعل) ، قحب (بنفس المعنى ، ولأن البَغِىّ من النساء تتعرض الرجال بسعال مكتوم كأنها تدعوهم به سميت قحبة) .

أصوات دالة على أسماء أنواع من الحيوان أو الأشياء : مثل الغاق (وهو نوع من الغربان ، أو طير مائى شبيه بالبط واحدته غاقة ، ويسمى غراب الماء ، الوروار (من أنواع العصافير) ، الزرزور ، الزيز (حشرة مجنحة تعيش بين الأشجار) ، الزاغ (نوع من صغار الغربان ريش ظهره وبطنه أبيض وبقيته أسود) ، الخزباز (والخازباز بالبناء على الكسر فى الزاى الأولى والثانية ، وهو ذباب يكون فى الرياض ونحوها . واسمه حكاية لصوته ولذلك بنى على الكسر) ، القطا ، ومن أسماء الاشياء الصفصاف (للشجر المعروف ، والفعل « صفصف » معناه فى اللغات السامية صفر ، ومايزال له هذا المعنى فى العربية والعبرية) . الخشخاش ، الخلخال ، الدف ، البوق ، الصنج ، الجلجل ، القبقاب .

وأكثر الأفعال الرباعية المضاعفة التى وزنها (فعفع) تدل على حكاية أصوات مختلفة فمنها :

أفعال تعين صفات فى النطق والكلام مثل : تمتع (أى تردد فى الكلام من عى) ، تفتغ ، ثعثع ، تخنخ ، ضغضغ (وهذه الأخيرة معناها « مضغ وليست له أسنان » ، وهى التى صارت فى العامية المصرية (مدغ ، وندغ) وهى تستعمل كسابقاتها بمعنى التردد وعدم الابانة عند النطق) ، تمتم ، غمغم ، جمجم ، مجمج ، مغمغ ، لجلج ، رجرج (أى

تردد فى الكلام عن عى ولم يوضحه) ، عطمط (يقال عطمط القوم أى تتابعت أصواتهم واختلطت ، فى الحرب وغيرها ، وعطمط الكلام أى خلطه) ، بعبع ، بقبق ، ترتر ، ثرثر ، فرفر ، بربر ، وروو ، فصفص ، وطوط (وكلها تعنى الإكثار من الكلام والسرعة الشديدة فى النطق به) ، وسوس ، وشوش ، فتفت ، همهم ، (وكلها بمعنى تكلم همسا) ، فحفح ، نحنح (أى ردد صوته فى حلقه) ، خمخم ، خنخن (تكلم من أنفه) ، وحوح (صات بصوت فيه بحح ، أو نفخ فى يده من شدة البرد وقال (أح أح) أو (حوحو) ، وهوه (ردد صوته عن حزن أو جزع) ، دمدم (تكلم بغضب) .

أفعال تدل على الضحك أو الصياح مثل : قهقه ، قرقر . كدكد ، كركر ، هأهأ (وكلها بمعنى أغرب فى الضحك وأفرط فيه) ، كتكت (ضحك دون القهقهة) ، صرصر ، عجعج (صاح بملء صوته) ولول (ناح بصوت مرتفع ولعلها مأخوذة من كلمة ويل) ، وعوع ، دقدق ، ضأضأ (للجماعة من الناس إذا ضجوا) ، جهجه بالسبع (صاح به ليزجره ويبعده) .

أفعال تدل على أصوات الحيوانات وحركاتها : شقشق (الطائر إذا صفر ، والجمل إذا هدر) شحشح ، جرجر ، قرقر (الجمل أى صوت) ، الجعجعة (أصوات الابل مجتمعة ، واستعملت للدلالة على صوت الطاحون) ، وأوأ ، وقوق ، وعوع (لصوت الكلب ، ويقال ققتف إذا نبح عن خوف) ، حمحم الحصان ، وهطهط ، مأمأ الخروف خنخف الخنزير ، وخفخفت الضبع ، وعوع الثعلب وابن آوى ، ضمضم

الأســد ، خرخر القط والنمر ، صمصم القنفذ ، زقزق الطير وشقشق وصفصف ، ويقال عقمق الطير إذا ردد صوته ، وقرقر الدجاج و وكوك الحمام ، وزرزر الورزور ، وصرصر الصقر والصرد (وهو طائر صغير ضخم الرأس أبيض البطن أخضر الظهر) ، قطقط القطا والحجل ، لقلق اللقلاق (طائر طويل العنق والرجلين موصوف بالذكاء ومعروف بافتراسه للحيات ، ويسمى اللقلق أيضــا) ، كشكشت الحية (أى حكت جلدها بعضه ببعض فأصدرت من ذلك صوتا) ، دندن الذباب ، وطنطن ، رفرف الطير بجناحيه ، وحفحف) ، دبدبت أرحــل الدواب ؛ وطقطقت ودقدقت .

ومن هذا الوزن أفعال دالة على أصوات الأشياء :

فنها ما يختص بالماء : يقال طبطب الماء أو السيل ، ويقال جرجر المـــاء (صوت فى حلق شاربه) ، شلشل (قطر) ، رشرش ، حبحب (ومعناه سال قليلا) تسحسح الماء (سال من فوق) ، رعرع (سال على وجه الأرض) .

ومنها ما يختص بالنار وما وضع عليها : يقال حفحفت النار وزمزمت (صوتت عند التهــابها) ، وحشحشت الشىء (أحرقته) ، ومعمع الشىء المحترق (صوت) ، وقشقش اللحم (سمع نشيشه فى المقلاة) ويقال للقدر التى تغلى على النار فيسمع لها صوت : بقبقب ، وغطغطت ، وغرغرت ، ونشنشت .

ومنها ما يختص بالريح : يقال ريح سجسج (خفيفة) ، ويقال نسنست

الريح وهرهرت (صـــوتت) ، وسفسنت (هبت باردة) ، وسفسفت الاشياء (أطـــارتها على وجه الارض) ، وذعذعت الشجر وزعزعته (هزته بعنف) .

ومنهـا ما يعـين أصواتا شتى : يقـال قرقرت البطن (من المغص والانتفاخ) ، لملع الرعد ، جلجل السحاب ، خشخش السـلاح والحلى والورق والثوب الجديد كل شىء يابس ، ومثله شخشخ . هسهست الدرع والحـلى ، خفخف الرجل ثوبه الجـديد أو الورق (حركها فسمع لذلك صوت) ، قضقض العظم (صوت عند انـكساره) ، زمزم الشىء دوى عن بعد . والتحتحة هى صوت حركة الســير من الجلد ، والـكد كدة صوت اصطدام شيئين صلبين .

ونحب أن نشير هنـــا إلى أن الآب رفائيل نخلة اليسوعى [1] وهو يعالج هذا اللون من الافعـال المضاعفة الدالة على الأصوات فى كتابة « غرائب اللغة العربية » قد استرسل فى الاستقصاء ، فلم يتقيد بأفعال الصوت وكاد يحصى كل الأفعـــال التى من هـذا القبيـل ، دلت على صوت أم لم تدل .

بعد هذا يأتى ضرب آخر من ضروب التنمية اللغوية عن طريق التوسع المجازى والاستعارى ، وهو منهاج فى نقل اللفظ للدلالة على معان جـديدة لوجه شبه معين ، أو لفـكرة دعاها المعنى الأصلى للفظة ما ، لمشاركته فى هذه اللفظة ، ومن أمثله ذلك :

المحيّا : بمعنى الوجه (مع إرادة المدح والمجاملة) ، وقد جاء من قول العرب إذا رأى الواحد منهم وجه صاحبه : حيّاك الله .

البرق : من البريق وهو اللمعـــان ، أطلق على الظاهرة الجغرافية الكونية المعروفة ، ونظرا لسرعة وميض هذا البرق فقد استعملت الكلمة حديثا لتدل على التلغراف .

البندقية: سلاح الرماية سميت كذلك لأن رصاصها فى البداية كان كرويا يشبه حبات البندق ، وهو الثمر الجاف الطيب المعروف .

الجرة : إناء من الفخار له عروة يجر منها .

حطام الدنيا : أى ما بها من مغريات ، وهو من أسماء التحقير لأن الحطام فى الأصل هو ما تحطم وأصبح لا فائد منه .

الخف : الجمل كالقدم للانسان ، ثم أطلق على نوع لين من الأحذية ، وبهذا المعنى جاء فى المثل العربى « رجع بخفَّىْ حنين » .

الخفاش : من أسماء الوطواط وأصل الخفش هو ضعف البصر بالنهار وهذا معروف فى طبيعة الوطواط .

المخلب : من الفعل خلب ، أى خدش وجرح بأظافره ، وربما جاء من معنى آخر للفعل خلب نفسه وهو الدلالة على الخطف .

الشباك : وهو فتحة فى الحائط عليها قضبان من خشب أو حديد مشبكة .

النافذة : هى الشباك إذا لم تكن عليه مشبكات ، بحيث تنفذ منه الاجسام .

الفلق: هو الصبح ، من فلق الشيء أى شقه حتى ظهر داخله .

العنقود : من المادة الثلاثية [ع ق د] ، يقال انعقد الزهر ، أى تضامت أجزاؤه ، وبدا فيه الثمر . ومن هذه المادة نفسها جاء العِقْد من حلى النساء .

الصديع : وهو الفجر ، من الصدع وهو الشق ، والتوسع فى هذه الدلالة مثلها كلمة الفلق .

القلب : من الفعل تقلب أى تحرك واضطرب . قال الشاعر :

ما سُمِّىَ القلبُ إلا من تقلّبه ولا الفؤادُ فؤادا غيرَ أنْ حُرِقا

وكأن هذا الشاعر اشتق كلمة الفؤاد من وقول العرب « فأد اللحم فى النار » يعنى شواه ، يريد أن يقول أن العشق يشوى القلب .

اللب : وهو القلب أيضا ، وأصل معناه : داخل الثمر ، وأثمن مافيه ، عكس القشر .

اللفظ : أصله إخراج أى شيء من الفم وطرحه خارجا ، ثم استعمل فى اخراج الكلام وهو النطق . والنطق نفسه لعله على صلة بالفعل (نتق) ، قالوا نتق الجراب ، أى نفضه وأخرج ما فيه .

النعامة : طير كبير معروف سمى كذلك لنعومة ريشه .

التأكيد : ويقال التوكيد أيضا ، وأصل معناه شد السرج على الدابة وتمكينه ، ثم استعمل فى إثبات الخبر .

الألمعي : وهو الذكي ، وأصله من اللمأن ، والشيء اللامع هو الذي يلقط الأشياء بصورها كالمرآة ، وعكسه المعتم .

الجارية : الخادم المملوكة ، والبنت الصغيرة ، من الفعل جرى يجرى ، لأن النساء الأخريات كن قعيدات البيوت لا يجرين .

الجمهور : وأصل معناه الرمل الكثير المتراكم ، ثم انتقل إلى الجمع الكبير من الناس .

بحث : وأصل معناه حفر الأرض التي صارت في عاميتنا (فحّت) ثم استعمل في طلب الشيء الضائع ، ثم في كشف الغامض من الأمور أو معرفة الخفي في العلم ، ومثله في المعنى والاستعمال : نقّب .

حذافير : وأصلها جوانب الشيء وأطرافه ، والمفرد الحذفور والحذفار ، ومنه قيل : الشيء بحذافيره ، أي كله .

الشرف : وهو المكان العالي ، والشُرفة المكان العالي في البيت ، يشرف منه الإنسان على ما حوله ، ثم استعمل بمعنى ارتفاع المنزلة .

الصداع : أصله من الصدع وهو الكسر والشق يصيب الجدار مثلا ، ثم استعمل لوجع الرأس ، وخاصة النصفي منه ، ومثلة الشقيقة وهي وجع نصف الرأس جاءت من الفعل شق بمعنى صدع .

الصفقة : أصلها التصفيق بالكف مرة واحدة ، وكانت هذه عادتهم عند إنهاء البيع والاتفاق عليه ، ثم استعمل بمعنى العملية التجارية التي يتم فيها البيع .

القاموس : وهي محرفة عن كلمة أوقيانوس اليونانية التي معناها البحر

المحيط ، ثم أصبحت تستعمل بمعنى الكتاب الذى يضم مفردات اللغة مرتبة على حروف المعجم ، ولعل أول ذلك كان تسمية الفيروزابادى معجمه المشهور باسم القاموس المحيط .

نبغ : أى امتاز فى علم أو فن ، وأصله من نبغ الشىء أى أصبح بارزا ظاهرا .

اوذعى : أى ذكى ، وهو من الفعل لذع ، يقال لذعت النار أى أسرعت فى الإحراق ، ونحن نقول اللوذعى كما نقول المتوقّد ، الذى هو من خصائص النار أيضا .

توتر : أى صـــار مشدودا مثل (وتر القوس) ، ثم توسعوا فى ذلك فقالوا « التوتر السياسى » ، و « التوتر العصبى » ، و « التوتر الدولى » .

هفا القلب : أى اشتاق وأصله من « هفـــا الريش أى طار فى الهواء » .

مـــوّه : أى أفسد الحقيقة وسترها بالغش والكذب والخداع ، وأصل التمويه طلاء الأشياء الخسيسة بماء الذهب أو الفضة ؛ ومن لفظة « ماء » جاء التمويه .

يد المكنسة : أو الهـــاون أو المطرقة أو غيرهما ، وأصل اليد للإنسان يستعملها لتناول الأشياء وللمصافحة ، نقلت إلى أطراف بعض الأدوات التى تعين على تناولها والإمساك بها .

رجل الكرسي : أو المنضدة وهي الواحدة من القوائم التي تقف عليها تلك الأشياء ، نقلت من قوائم الإنسان والحيوان .

اخ شقيق : كأنه مشقوق من نفس القطعة التي خلق منها أخوه .

اثفى الرجل : أي تزوج زوجة ثالثة ، وكأنه يشبه القدر التي ترتكز على الأثافي ، وهي ثلاثة أحجار توضع تحتها ، وكأن الزوجة الثالثة هي ثالثة الأثافي ، والعرب تقول (ثالثة الأثافي) بمعنى المصيبة والداهية ، وذلك لأنهم كانوا أحيانا يسندون القدر على حجرين مرتكنة إلى صخر الجبل بدلا من الحجر الثالث ، فسمى الجبل ثالثة الأثافي ، عندما يراد به تصوير المصائب الضخمة ، والدواهي الثقيلة .

خطر بالبال : وأصل خطر مشى وهو يرفع يديه ويخفضهما ، وكأن الفكرة إذا ظهرت في النفس تمشي وتتحرك لتنبه صاحبها إلى وجودها ، ومن ذلك سمى البال والفكر أيضا الخاطر .

رجح الرأى : وأصله في الميزان عندما يوزن الدينار فيتبين أنه رزين ثقيل له وزنه الصحيح ، ومن ذلك قيل رأى راجح .

ومن أهم الطرق الشائعة في نمو المادة اللغوية ، دخول ألفاظ أجنبية في صميم متن اللغة وهو ما يسمى المعرب والدخيل :

المعرب والدخيل

الإنسان كائن اجتماعى بغريزته ، ولغته بدورها ظاهرة اجتماعية لايمكن تصورها إلا فى ظل نظام عام للتبادل المادى والفكرى بين أفراد المجتمع الواحد . ومعروف أنه بمجرد ظهور الإنسان المميز على هذه الأرض ، انطلق فى سعى دائب لتحقيق هذا التبادل بالوسائل المختلفة التى تمليها عليه مطالب حياته ، ويحددها مستواه من الحضارة . فما الحروب والمعاهدات ، والأحلاف السياسية والعسكرية ، واتفاقات التجارة والصناعة ، والصراع على توسيع مناطق النفوذ ، إلا محاولات وصوراً لهذا التبادل الاجتماعى ، جيدة أحيانا ورديئة أحيانا . كما أن المصاهرة والزواج بصوره المتعددة من شراء بالمال ، أو عقد قضائى أمام شهود ، أو زواج بالخطف أو الأسر أو الامتلاك ، أنواع وأساليب من هذا التبادل . كذلك الشعائر الدينية المختلفة من صلوات جماعية ، وحج ، وأعياد ، ومواكب وغيرها ، هى أيضاً طرق لهذا التبادل . بل أن الهجرة الفردية والجماعية ، والغزو الشامل ، واندماج العشائر طوعا أو كرها بعضها فى بعض ، هى كذلك مظاهر من هذا التبادل .

والذى يتتبع اختلاط دماء الناس وأصولهم وأنسابهم منذ الأزل ، يرى من إتساع ذلك وتفشيه فى البشر ما يجعله يؤمن بأن فكرة الجنس الخالص القح لاتعدو أن تكون عصبية جوفاء ، وأسطورة فولكلورية ، لايسندها علم ولايدعمها دليل . فمنها إدعى الآريون أو الجرمان أنهم السلالة النقية ، ومنها زعم البيض أنهم من أرومة غير تلك التى انحدر

منها السود ، ومنها أصر اليهود على أنهم شجرة مستقلة من بنى الإنسان وأنهم شعب مختـــار لله . . . مهما قيل من ذلك فان واقع التاريخ ، ومنطق المجتمع ، وشواهد التطور الحضارى القديم والحديث ، فى الفن والأدب والدين واللغة ، تثبت أن الإنسان كان فى أغلب ظروف تطوره دائم التقلب فى ملتقى تيارات بشرية أخرى تتقاطع ، وتتشابك ، وتتكون فى ثناياها جيوب وعقد تحمل آثارا عميقة واضحة من تفـــاعل هذه التيارات جميعا .

من كان يظن أن اللغة السنسكريتية ، لغة الهند القديمة المقدسة ، مازال عصارتها تجرى مركزة وبنسبة عالية جدا فى لغات حديثة كالألمانية أو الانجليزية مثلا ؟ ومن كان يعتقد أن لغة الفينيقيين فى لبنان قديما لم تكن تختلف كثيرا عن لغة الحبشة الآن ؟ وأن دواوين الحكومة فى بابل فى مستهل الألف الثانى قبل المسيح كانت تستعمل لغة تكاد تكون توأما للعربية الفصحى ، هى اللغة البابليـــة ؟ ومن كان يتوقع أن هذه اللغـات السابقة من فينيقية وحبشية ، ومن عربيـة وبابليـة ، هى ولغة اليهود العبرية ، ترقى كلها إلى أصل واحد هو اللغة السامية الأم ؟ وأنه بالرغم من هذا الأصل الواحد فلا سبيل إلى إنكار وجوه الشبه بين هذه ولغات أخرى لأجناس إفريقية ، سوداء أو بيضاء ، قديمة أو حديثـــة ، كالفرعونية وكثير من اللهجات النوبية ، ولهجات البربر فى الشمال الافريقى بل أننا نجهد فى الوصول إلى أقصى مايمكن الايغال فيه من مجاهل تاريخ الكلام ، فلا نجد إلا لغـات مهما تميزت فى لفظها ومنهجها فى التعبير بعضها عن بعض ، ومهما تكتلت فى مجاميع تنتسب كل منها إلى عائلة

معينة ، فإنها تظل من بعد مؤثرة بعضها فى بعض ، آخذة بعضها من بعض عمدا أو عفوا .

وكما ظهر فى أنساب الناس متعصبون للجنس النقى والدم الزكى والأرومة القحة المؤثلة ، فكذلك ظهر فى اللغة - فى كل لغة - متعصبون لنقائها ، يقفون موقف القلق أمام مايتسرب إليها من جاراتها القريبات أو البعيدات من رشح ، ومايصيبها من شظايا وشذرات ، فيحاولون أن يطردوا من ذلك ما لا حاجة لبقائه ، وما تمنع الشارات القديمة من استضافته ، وما لم يحسن التخفى والتستر ، وبقى بملامحه الغريبة شاهدا على أن أسلاف هذه اللغة قد تركوها فقيرة تستجدى القريب والبعيد . هذه هى مشكلة الدخيل .

ونبادر من الآن فنقول إن تسجيل الدخيل كله فى لغة ما أمر مستحيل ، فنحن نعرف يقينا الآن أن كلمة القصر من الدخيل ، وكذلك الصراط والهيكل والدواة والديباج ، ولكن مازلنا نقف حيارى أمام مواد فى اللغة مثل : (خ س س) التى منها الخسة ، والشىء الخسيس ونحو ذلك ، أهى من الفارسية « خس » بمعنى كل شىء كريه أو حقير أو قذر ، أم هى عربية أصيلة ؟

وكلمة « كميت » التى معناها فى لغتنا الأسود اللون ، أو الداكن ، لايداخلنا الشك فى أصالتها فى العربية ، ولكننا إذا أمعنا النظر وجدناها لاتستعمل إلا فى صيغة التصغير هذه ، وليس لها جمع شائع الاستعمال ، والمشتقات منها قليلة جدا . كل ذلك يدعو الباحث فى اللغة إلى الشك فى

أصلها فإذا وجدنا أن لفظة « كيميت » فى اللغة المصرية القديمة معناها الأرض السوداء ، وأنها كانت علما على مصر نفسها ، تمييزا لتربتها الداكنة اللون الخصبة عن الصحراء الصفراء الشاحبة المحيطة بها ، شعرنا أن شكنا فى أصلها فى العربية ليس من قبيل الوساوس أو النزوات .

وكذلك الكلمة العربية « غنم » بمعنى القطيع من الضأن ، وهو اسم جنس جمعى لامفرد له من لفظة ، وعلاقته بمعنى الغنيمة ضعيف ، ولكننا نجد المصريين الفراعنة كانوا يعبدون إلـها رأسه رأس كبش وكان اسمه عندهم « خنوم » ، فهنا أيضا ينبغى السؤال عن صلة الغَنَم العربية بالإله الكبش « خنوم » .

وعلى العكس من ذلك تقابلنا كلمات نظن لأول وهلة أنها دخيلة أو عامية ملحونة . مثل « أيوه » بمعنى نعم . فقد جرت العادة أن يربط اللغويون بينها وبين اللفظة التركيبة التى بنفس المعنى « أيوت » ، بينما هى فى الواقع كلمة « أى » (بفتح الهمزة أو كسرها) وهى عربية أصيلة معناها نعم ، ألصقت بها واو القسم ثم سكت عن المقسم به اختصارا ، وكان أصلها أى والله ، ثم سكت عن لفظ الجلالة . ذكر الخفاجى فى « شفاء الغليل » أن الزمخشرى قال فى الكشاف : « سمعتهم فى التصديق يقولون « أَيْـوّ » فيصلونه بواو القسم ، ولاينطقون به وحده » ثم قال الخفاجى : والناس تزيد عليه هاء السكت ، فليس غلطا كما يتوهم [1].

---

(١) شفاء الغليل ، فيما فى كلام العرب من الدخيل : لشهاب الدين أحمد الخفاجى - القاهرة ١٣٢٥ هـ - ص ١٨ .

وكلمة أخرى يظن الكثيرون أنها من التراكم اللغوى الغريب فى اللهجات العامية ، وهى الفعل « خش » بمعنى دخل ، وهو فصيح لاغبار عليه ، يقال خش فى الشيء ، أى دخل ؛ وخش الرجل فى القوم ، وانخش فيهم ، أى دخل بينهم . والخشاش (بفتح الخاء والشين) هو المتوقد الماضى النافذ فى الأمور ، الذى يعرف مداخلها ، قال طرفه بن العبد فى المعلقة :

أنا الرجل الضَّرْبُ الذى تعرفونه خَشَاشٌ كرأس الحية المتوقد

ومن هذه الكلمات : دعس ، بمعنى داس ؛ وروّج (بتشديد الواو) ، بمعنى عجل (بتشديد الجيم) وهى شائعة فى عامية السوريين واللبنانيين ؛ والريحة (بالكسر) بمعنى الرائحة ، والمكان أو الإناء الفاضى ، بمعنى الخالى والخاوى ، وفزر الشيء ، بمعنى شقه ومزقه ، ووشوش ، بمعنى تكلم هامسا ، وتسليف المال بمعنى إقراضه . ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نتعقب كل ماهو فصيح أو محرف قليلا عن الفصيح ، فى لهجاتنا فى العالم العربى . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى المعجم الذى ألفه أحد علماء القرن العاشر الهجرى وهو الشيخ يوسف المغربى للدفاع عن أصالة العربية فى عامية المصريين وسماه « دفع الاصر عن كلام أهل مصر » ، أو « الفضل العام وقاموس العوام » ، وهو من مخطوطات مكتبة الكلية الشرقية بجامعة ليننجراد ، قام بنشره مصورا والتقديم له وفهرسته الدكتور عبد السلام أحمد عواد ، وظهر فى موسكو سنة ١٩٦٨ . فن أمثلة ما جاء فيه (ورقة ٢٣) . « ويقولون مثلا ، الفناجين على الرّفّ ، وهو صحيح ، قال الرف

شبه الطاق يجعل عليه طرائف البيت ، كالرفرف ، جمعه رفوف ؛ والرف الأكل الكثير ، والقبلة بأطراف الشفة ، والإحسان ، والتلألؤ والبريق ، والخدمة بكل ما يمكن ، والإحداق بالشيء والإحاطة به ، والرضاع ، والارتياح ، وبسط جناحي الطير ، كرفرف ، والجماعة من الضأن والإبل ، والمشرف من الرمل ، واختلاج العين ، والمصّ ، والمسرة ، والثوب الناعم ، وأن ترف ثوبك بآخر لتوسيعه من آخره . وبالكسر شرب كل يوم ، وأخذته الحمى رفًّا ، أى كل يوم . وبالضم التبن . وقد حكمت التثليث فى الرف ، فقلت :

لذى الجمال الرف (بالفتح)   وللعذول الرف (بالكسر)

له يليق الرف (بالضم)   كالأتُنِ أو كالحُمُرِ

ويقولون : عينى ترف ، وتقدم أن الرف اختلاج العين وغيرها . رف يرف (بالكسر) ويرف (بالضم) . وقد صنف بعضهم كتابا فى اختلاج الأعضاء من الرأس إلى الرجل » .

وقال (ورقة ٥٠) : « ويقولون فلان عوقنا عن مصلحتنا مثلا ، والذى فى القاموس وغيره : عاقه يعوقه عوقا ، حبسه عنه ، وصرفه ولكن قال : .. كالتعويق ، فهذا يدل على وجود عوّق . وكما أن يعوق فعل ، يكون اسما ، قال الله تعالى : ولا يغوث ويعوق . وما عاقت المرأة عند زوجها وما لاقت ، أى لم تلتصق بقلبه . »

والمؤلف مع ذلك يستدرك أحيانا على المصريين استعمالات لم ترد فى

العربية الفصحى كاسم الاشارة الجمع « دولة » فقد جاء عنده (ورقة ٧٣ ب) : « ويقولون ، دولة كذا ، أو أش فى دولة طيب ؟ ولا يصح فى هذه أن تصح ، إذ الأصل هؤلاء ، والدولة الانقلاب ، بضم ويفتح والجمع دول ، مثلثة ، وقد أدالوه وتداولوه أخذوه بالدَّوَل (بفتحتين) ، والدوالى العنب ، لم يبين مفرده ، ومن القرب لفظا ومعنى أن دولا لغة فى دلو ، والانقلاب من حال إلى حال » .

ومن ذلك (ورقة ٥٠) : « ويقولون لمن يكون طويلا جدا ، عملاق . مع أنه قال فى القاموس : عملاق ، كقرطاس ، من يخدعك بظرفه ، والعماليق والعمالقة قوم تفرقوا فى البلاد ، من ولد عمليق ، كقنديل أو قرطاس ، ولم يذكر فيهم طولا » .

ووجود الدخيل فى لغتنا العربية هو صورة لظاهرة عامة فى كل اللغات . فهى جميعا تستورد الدخيل بحسب حاجتها ، ويتسرب إليها أيضا رغم أنفها ، إذ لا يكاد يعقل أن تتم عملية تبادل حضارى غير مشفوعة بتبادل لغوى فى الوقت ذاته ، ويبدأ ذلك بتحويل الاسم العلم إلى اسم عام الدلالة .

وأشهر أمثلة ذلك كلمة « أطلس » للكتاب الجغرافى الذى يضم مجموعة من الخرائط للعالم أو لبعض أقاليمه والأصل فيه أنه اسم إله رومانى قديم يحمل الأرض على عاتقه . وعندما طبع « مركاتور » أول مجموعة من الخرائط الجغرافية ، أطلق على هذه المجموعة اسم « أطلس » ، وكان ذلك سنة ١٥٩٥ ، ثم شاع استعمالها من بعده فى معظم لغات العالم .

ومن أمثلة ذلك أيضا كلمة « البورصة » ، بمعنى سوق النقود والأوراق المالية ، والأصـــل فيها أن تاجرا من أهالى البندقية بإيطاليا رحل إلى مدينة « بروج » فى بلجيكا ، وأنشأ فيها لحسابه الخاص سوقا للأوراق المالية ، وكان اسم هذا التاجر « دلا بورصا » فحملت المؤسسة اسمه ، وأصـــابتها لغويا تحريفات بسيطة حتى صارت « بورصة » ، وخرجت من فصيلة أسماء الاعلام إلى أسماء الأشياء .

ومن ذلك « الكشمير » لنوع من الصوف المنسوج تنتجه هذه المقاطعة الهندية ، و « الموسلين » لنوع من الحرير الرقيق كان يأتى من العراق واسمه منسوب إلى مدينة « الموصل » . و « الشاش » وهو نسيج رقيق كان يأتى من بلدة بهذا الاسم[1] فى إقليم السند (بالقرب من بخارى وسمرقند) ، و « البرتقـال الذى ترجع نسبته إلى البرتغال .

وفى اللغة الحديثة تستعمل لفظة « وات » أو « واط » اسما لوحـدة قياس كهربائية ، وهى فى الأصل اسم عالم الطبيعيات الاسكتلندى « جيمس وات » (١٧٣٦ - ١٨١٩) ، وبالطبع هذه اللفظة هى نفسها التى توجـد فى ألفاظ أخرى مركبة مثل : كيلو وات ... الخ .

ونفس الملاحظة تنطبق على كلمة (فولت) التى استعملت - فى الكهرباء أيضا - اسم وحدة لقياس ضغط التيـار الكهربائى ، وهو فى الاصل اسم عالم الطبيعيات الايطـالى (فولتا) (١٧٤٥ — ١٨٢٧) الذى تخصص كسابقه فى الكهرباء ، واخترع (بطارية) كهربائية لا تزال تنسب اليه .

وسمك (السردين) يحمل اسم جزيرة سردينيا فى البحر الأبيض المتوسط.

---

(١) وقيل إن أصله مصرى قديم.

وكذلك « ساندوتش » للشطائر المعروفة التى تؤكل عند الاستعجال ، وهى منسوبة إلى « الكونت دى ساندوتش » المتوفى سنة ١٨٩٢ ، إذ كان طباخه هو أول من هيأ هذا النوع من الطعام فى أوروبا ليأكله الكونت وهو باق على مائدة القمار لايغادرها إذا حان وقت الأكل . أما العرب وغيرهم من الأمم التى عرفت حياة البداوة والترحال ، فقد عرفوا هذا اللون من الطعام منذ القدم ، ولكنهم لم يطلقوا عليه فيما أعلم اسما خاصا ، فمثلا يروون عن أشعب الطماع المشهور الذى عاش على عهد الخلفاء الراشدين وأوائل دولة بنى أمية ، أنه ساوم رجلا يبيع قوسا ، واستكثر الثمن الذى يطلبه البائع ، فقال له : والله لو رميتُ بها الطائر فنزل مشويا بين رغيفين مانقدتك هذا الثمن . فهــذا الطائر المشوى بين رغيفين ليس إلا صورة من « الساندوتش » . وكذلك يروون عن الجاحظ أنه كان يصنع طعاما للبحارة على مرفأ البصرة ، فيضع السمك المشوى فى الخبز ويبيعــه ، وهو صورة أخرى من الساندوتش .

وفى لغتنا العربية سنجد مع التنبيش والتنقير كثيرا من الألفاظ التى كانت أعلاما ثم انتقلت فصارت أسماء لأشياء .

أما الذى يزيد من صعوبة البت فى أمر المعرب والدخيل فى هذه اللغة بشكل خاص فهو أنها قديمة موغلة فى القدم ، أقدم بكثير جداً مما يزعم علماء اللغة والأدب . لذلك يكاد يكون مستحيلا أن نجزم عند بحثنا فى كثير من الألفاظ المشتركة بين العربية وغيرها من لغات العائلة السامية ، بأن هذه اللفظة أو تلك « مأخوذة » من العبرية أو

الآرامية أو البابلية أو الحبشية أو غيرها ، إذ قد يكون العكس هو الصحيح ، نظرا لقدم لغة العرب كما قلنا ، ولعدم عثورنا على أى نص مكتوب أو مروى عن اللغة السامية الأم ، التى تفرعت عنها كل تلك اللغات واللهجات ، والتى تعتبر العربية أقرب بناتها شبها بها ، طبقا لما تقضى به نتائج علم اللغة المقارن .

وهكذا لايسعنا فى هذا الميـــدان من البحث ، إلا أن ننبه إلى ماحدث فى كتابات العلماء من مبالغات متطرفة فى إلحاق ألفاظ عربية ، أصيلة العروبة ، بمصادر سامية أخرى . وهو أمر لم ينج منه الأب العلامة رفائيل نخلة اليسوعى فى « غرائب اللغة العربية » ، بالرغم من احتياطه الشديد فى ذلك ، إذ يقول فى مقدمة هذا البـــاب من كتابه : « من الواضح للخبراء أن معالجة هذا الموضوع شديدة الوعورة ، لأن العرب ومن ورثوا لغتهم فى العصور الأخيرة ، لم يدرسوا أصل الكلمات الدخيلة فى لسانهم درسا علميا كما فعل معظم شعوب أوروبة ، ولم يعينوا مثلهم فى القواميس مصدر تلك الكلمات إلا ندرة ، مكتفين فى الغالب بقولهم إنها دخيلة . على كل حال قد طالعنا بنظر النقد الدقيق أشهر الكتب المختصة بالكلمات الدخيلة ، ولم ندرج فيها فى الجداول الآتية سوى ما أيقنا بمصدره المباشر ، أو رجحنا حقيقته ، بل أضفنا إليها ألفاظا عديدة مما اكتشفناه . هاكم عنوان المؤلفات المشار إليها .

« المعرب من الكلام الأعجمى » ، لأبى منصور الجواليقى .

« الألفاظ السريانية فى المعاجم العربية » ، للبطريرك اليعقوبى إغناطيوس افرام برصوم .

« الكلمات الدخيلة الأرامية فى العربية » ، لفرنكل ، بالألمانية :

Fraenkel ; Die aramâischen Fremdwörter im Arabschen

« الألفاظ الفارسية المعربة » للمطران ادّى شير » [1]

ولسنا نشاح الأب الباحث فى رجوعه لتلك المصادر ، ولكنا نريد أن نقول إن الطريقة المثلى كانت تكون بذكر الالفاظ المشتركة بين اللغات السامية دون القول بأن العربيـــة هى التى أخذت ، إلا عندما يثبت الانتقال إليها بما لاشك فيه من الظواهر الصوتية والصرفيـة . أما أمر الدخيل الفارسى فى اللغة العربية فربما كان أقل خطرا لأنه أوضح وأسهل فى التعرف عليه . كان الأولى إذن الأخذ بما أخذ به « جزنيوس » فى معجمه للغة العبرية والآرامية فى الكتاب المقدس[2] ، فهو يذكر غالبا الألفاظ المتشابهة فى اللغات السامية جنبا إلى جنب ، دون أن يقطع بأن إحداها قد أخذت عن الأخرى ، إلا قليلا ، وفى هذه الحالة يميل بوجه عام إلى القول بأن العبرية والسريانية والآرامية هى التى أخذت عن العربية ، لما أسلفناه من احتفاظ اللغة العربية بأكثر وأعرق خصائص السامية الأم .

---

(١) الأب رفائيل نخله اليسوعى ، المرجع السابق الذكر — ص١٦٩ .

(2) Wilhelm Gesenius' Hebräisches und Aramäisches Handwörterbuch - Leipzig, 1921.

وبعد ، فما هو الفرق بين المعرّب والدخيل ؟

يقول جلال الدين السيوطى فى « المزهر » ، (النوع التاسع عشر : معرفة المعرب) ، « هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها » ، ثم ينقل مزيدا من التحديد عن الجوهرى فى معجمه « الصحاح » وهو أن تعريب الاسم الأعجمى ، أن تتفوه به العرب على منهاجها ، تقول عربته العرب ، وأعربته أيضا » . [1] وهذا ما يشير إليه الأب اليسوعى « هنرى فليش » فى كتابه « العربية الفصحى » ، بقوله « هناك كلمات أعجمية مقترضة ، تم تعديلها على الصيغ المختلفة ، ولقد كان من الممكن أن يجرى تعريبها إلى الحد الذى يتلاشى معه أصلها ، ولكن التعريب لا يفترض وجود سلسلة الاشتقاق المشار إليها قبل (يعنى : الأفعال ، والمصادر ، وأسماء الزمان ، والمكان ، وغيرها . أى أن المعرب ، بالرغم من دخوله كثيرا فى القوالب العربية ، واختفاء مايدل فى لفظه على أصله الأجنبى ، يظل عادة وحيدا ، لاتحيط به عائلة من المشتقات المختلفة .) فمثلا الكلمة القرآنية « صراط » ، التى تبدو بزنة الصيغة « فعال » ، ليست سوى الصورة النهائية — الإغريقية والآرامية (كذا ؟) — للكلمة اللاتينيـــة « ستراتا » . وكلمة « قميص »

(١) المزهر ، فى علوم اللغة وأنواعها ؛ للعلامة جلال الدين السيوطى ، طبع محمد سعيد الرافعى ، بمطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٥ ﻫ — ج١ ص ١٥٩

بزنة فعيل » كلمة من كلمات الشعر القديم ، تأتى من الكلمة الاغريقية « كيسيون » . . . الخ) [1] .

ويبدو أنه ليس بمحض الصدفة أن هـذا العـالم اختـار المثلين اللذين ضربهما للمعرب من اللاتينية واليونانية ، أى من العائلة الهندوأوروبية ، تحرزا من الوقوع فيما أشرنا إليـه من مشاكل التأصيـل بين الـكلمات العربية ومثيلاتها فى العائلة السامية نفسها . لاشك فى أنه من الممكن أن نقول أن الفعل « ثاب » بالثاء المثلثة ، عربى أصيل ، ومعناه « رجع » بينما الفعل (تاب) بالتاء المثناة ، معرب من الآرامية ، ويرجع إلى نفس الأصل ، ومعناه (رجع عن الشر) ، أو (رجع إلى الله) ، وهو معنى دينى خاص .

و لاشك أيضا فى أن كلمة (حاخام) أى (كاهن اليهود) معربة عن العبرية ، لأن العربى الفصيح المماثل لهـا من نفس الأصل والاشتقـاق هو (حكـيم) . وكذلك (السبط) أى القبيـلة من اليهود . وأيضـا لفظه (كرزن) أو (كرزين) بمعنى (الفأس الـكبيرة) ، من الفعل العبرى (جرز) أى (قطع) ، ومنه فى العبرية (جرزن) أى (فأس).

ولاشك فى أن (الناطور) بمعنى (الخيال ، أو التمثال الذى ينصب فى الحقل على شكل إنسان ، لتخويف الطيور) آرامى الأصل ، لأن الفعل « نطر » بالطـاء المهملة فى الآرامية يقـابله فى العربية « نظر » بالظـاء

---

(١) العربية الفصحى ، نحو بناء لغوى جديد ، تأليف الأب هنرى فليش اليسوعى ، تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين ــ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٦ ص ٧٨ .

المعجمة ، كما أن وزن فاعول الذى جاءت عليه لفظة ناطور من الأوزان الآرامية الشائعة .

و « البيعة » بمعنى (الكنيسة الصغيرة) آرامية أيضا ، لأن مايقابل هذه العين عندنا هو الضاد ، وكأن الكلمة لو أنها أصيلة فى العربية لكانت « البيضة » . لأن مايبدو منها من بعيد هو القبة الشبيهة بالبيضة .

كل هذا له مبررات فنية فى المقارنة ، ترجح أنه عبر إلى العربية الفصحى من لغة سامية أخرى . أما الذهاب إلى أن كلمة « القدس » معربة أيضا فباطل . إذ أن العائلة الاشتقاقية كلها موجودة فى العربية ، مثل الفعل « قدّس » ومايتصرف منه ، والصفات والأسماء « مقدس » و « قدّيس » ونحوها . وهذه المادة من التراث العام للغات الساميه جميعا . كذلك باطل أن نقول إن القبعة ، والقمح ،والكابوس ، والكمين ، والكاهن ، والسلسلة ، وسلخ الجلد ، معربة عن السريانية ، وأن الإجاص ، والإران (الصندوق) ، والتسبيح ، معربة من العبرية .

والخلاصة أنه قد يكون من السهل - إلى حد ما — رد كلمة معربة إلى مصدرها الأول ، إذا كان هذا المصدر من عائلة لغوية أجنبية . أما إذا كانت اللفظة شائعة فى لغات العائلة الواحدة فإن الأمر عسير جدا ، ولابد - على الأقل من أن تكون الكلمة فى هذه الحالة منتمية فكريا وحضاريا بشكل واضح إلى غير المجتمع الذى انتقلت إلى لغته ، أو أن تكون بلا مشتقات لها أو منها فى هذه اللغة ، أو أن يكون لها مرادف أكثر رسوخا فى أبنية هذه اللغة .

وعلى هذا الأساس ترد الأمثلة للمعرب من العائلة السامية ذاتها نحو : الآجر ، والإكار (بابلية أشورية) ، والإفك ، والجدث (القبر) — (عبرية) ، والجوّانى ، والبرّانى ، والبلوط ، والبيدر ، والتنور ، والكنز (وتتصل به لفظة الجنازة أيضا) ، والحصن ، والشهر (آرامية وسريانية) ، والبغل ، والدملج أو الدملوج (نوع من الأساور لزنود النساء) والجلباب ، والخيمة ، والمصحف والمنبر والمحراب (حبشية) .

أما المعرب من لغات غريبة عن العائلة السامية فهو أيضا كثير ، وإن كان التعرف على معظمه أقرب منالا كما قلنا من معرفة المعرب عن لغات سامية أخرى . ولكن مازال الفرق بين المعرب والدخيل فى حاجة إلى إيضاح . والغريب أن هذا الإيضاح لم يقلق الأقدمين كثيرا ، فاستعمل جمهورهم المعرب والدخيل بمعنى واحد ، ومنهم السيوطى فى « المزهر » ، وشهاب الدين أحمد الخفاجى فى « شفاء الغليل . والذى يخرج به الباحث من معارضة الأقوال المختلفة ومقارنتها ، أن التفرقة بين المعرب والدخيل مختلف فيها على طريقتين :

أ ـ إذا جاءت لفظة أجنبية ، وهُذبت من حيث لفظها ، بحيث أشبهت الأبنية العربية القحة فى ميزانها الصرفى ، اعتبرت من المعرب . أما إذا بقيت على وزن غريب على اللغة العربية فهى من الدخيل . ولكن هذا التحديد سينتهى بنا إلى اعتبار « الفيلّين » مثلا ، (وهو نوع من لحاء شجر مخصوص شديد الخفة والمرونة)

من المعرب واعتبـــار كلمة مثل « آجُـرّ » وهو الطوب الأحمر ، من الدخيـــل ، على حين أن الآجر جرت على ألسنة العرب الخلص الفصحاء قبل ورود « الفاين » بزمن طويل ، وتكون لفظة « لغم » من المعرب ، بينما هي في الواقع دخيـــلة من اليونانية المتأخرة « ليكيما » بمعنى انفجار جاءت عن طريق التركية ، على حين تعتبر لفظة « سِنْتَدْأو » (وهو اللص) من الدخيل ، وهي باليونانية « سنثيس » ؛ والحقيقـة أن استعمال هـذه اللفظة في اللغـــة العربية قـديم موغـل في القدم .

ب ـ اللفظة الأجنبية التي استعملها العرب الذين يحتج بكلامهم تعتبر من المعرب . حتى ولو لم تكن من حيث بناؤها ووزنها الصرفي مما يدخل في أبنية كلام العرب . أما مادخل بعد ذلك فإنه يعتبر من الدخيل ، أي الذي جرى على الألسنة والأقلام مستعارا من اللغات الأجنبية لحاجة التعبير إليه ؛ وهذا التحديد الأخير هو الذي نميل إليه ونفضله .

وهكذا يكون من الدخيل : البوغاز (تركي) ، الطبنجة (فارسي ، من الفعل « تباندن » أي قذف ، ودفع بشدة) ، القرصان (لاتينية : كورسور cursor) ونحوها ، وإن كانت على أوزان عربية ، لأن العرب الخلّص لم يستعملوها . بينما يكون من المعرب الديباج (فارسي ، أصله « ديو » أي شيطان ، و « باف » من الفعل « بافتن » أي نسج ، ومعناه الحرفي « نسيج الشيطان » لجودته وعجز عامة الناس عن صنعـــه) ، والسجنجل أي المرآة (من اللاتينية سِكْسَنْجُلُوس Sexangulus ، أي

ذات الزوايا الست) ، بالرغم من ندرة الأوزان الصرفية العربية الأصيلة التي يمكن دخول هاتين اللفظتين فيها .

أما محاولة استقصاء الدخيل في كلام العرب ، والقطع بأنه كذلك ، والتمييز بينه وبين المعرب ، والإحـــاطة بكليهما ، فضلا عن التأريخ لدخول ذلك في اللغة ، فما يزال أمرا في ذمة الأجيال القادمة ، وإن كان القدامى قد حاولوا في هذا محاولات طيبة . ولكن التوصل في العصر الحديث إلى كشف لغات وكتابات بأكملها ، وتطور وسائل البحث اللغوي التاريخي والمقارن ، وتقدم علوم الأصوات اللغوية ، واتساع المعلومات التي يقدمها علم اللغة العام ، كل ذلك يجعل حجم المعرب والدخيل ، ودراستهما ، وحصرهما ، أمرا تجب إعادة النظر فيه .

ونعود الآن فنكرر أن أية لغة متقدمة متطورة ، عاشت فترة من عمرها في حضارة زاهرة ، وعلم راق ، وفكر عال ، وأدب رفيع ، لا يمكن أن تكتفي بثروتها المحلية ، كما أنه لا يمكن أن تنجو اللغات الأخرى من تأثيرها . وهذان طرفا قضية قديمة ، بالغ عـــدد من العلماء في التعصب لكل منهما .

ذكر السيوطي في « المزهر » النوع الثامن عشر ، وهو معرفة « توافق اللغات » كما يسميه قوله : « قال الجمهور : ليس في كتاب الله سبحانه شيء بغير لغة العرب ، لقوله تعالى : إنا جعلناه قرآنا عربيا ؛ وقوله تعالى : بلسان عربي مبين . وادعى ناس أن في القرآن ما ليس

بلغة العرب ، حتى ذكروا لغة الروم والقبط والنبط . قال أبو عبيدة : ومن زعم ذلك فقد أكبر القول ، قال : وقد يوافـــق اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد ، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها ، قال : فمن ذلك « الاستبرق » وهو الغليظ من الديباج ، وهو « استبره » بالفارسية ، أو غيرها قال : وأهل مكة يسمون المسح الذى يجعل فيه أصحاب الطعام البُرّ « البلاس » وهو بالفارسية « بلاس » ... وقال الإمام فخر الدين الرازى وأتباعه : ما فى القرآن من نحو « المشكاة » و « القسطاس » و « الاستبرق » و « السجيل » لانسلم أنها غير عربية ، بل غايته أن وضع العرب فيها وافق لغة أخرى ، كالصابون والتنور ، فإن اللغات فيها متفقة . قلت : والفرق بين هذا النوع وبين المعرب ، أن المعرب له اسم فى لغة العرب بغير اللفظ الأعجمى الذى استعملوه ، بخلاف هذا » هذا مانقله جلال الدين السيوطى [1] . وكلامه الأخير غير مقبول ، لأن معظم الألفاظ التى يستعيرها المتكلمون بلغة ما من لغة أخرى هى ألفاظ لم يجدوا فى لغتهم ما يؤدى معناها . أما أخذ كلمة أعجمية لتدل على ماتدل عليه كلمة أصيلة ، واستعمالها ، وجعلها مترادفين ، فهو من باب التضخم المرضى الذى تصاب به اللغات .

ويعود السيوطى ، فى الباب الذى يلى هذا ، وهو (النوع التاسع عشر ، فى معرفة المعرب) فيذكر عن أبى عبيد رأيا نرتضيه ، ونرى

---

(١) المزهر ج ١ ص ١٥٧ .

أنه التفسير اللغوى الصحيح لظاهرة اقتراض الألفاظ من اللغات الأخرى . قال أبو عبيد « والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا . وذلك أن هذه الحروف أصولها عجمية - كما قال الفقهاء - إلا أنها سقطت إلى العرب ، فأعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال عجمية فهو صادق . » وذكر الجواليقى فى « المعرب » مثله ، وقال « فهى عجمية باعتبار الأصل ، عربية باعتبار الحال ، ويطلق على المعرب « دخيل » ، وكثيرا ما يقع ذلك فى كتاب العين والجمهرة وغيرهما » [1] . وقد أشرنا إلى الخلط بين الاصطلاحين وأبدينا ما نرجحه من رأى فى الفرق بينهما .

وحول التفرقة بين مجاميع الألفاظ الداخلة من لغات أخرى إلى اللغة العربية ، كانت المحاولات القديمة جادّة طيبة مشكورة على كل حال ، نذكر منها على سبيل المثال ما أورده الشهاب أحمد الخفاجى فى « شفاء الغليل » : « أعلم أنهم قد يغيرون الكلمة الأعجمية كما سيأتى ، والتغيير أكثر من عدمه ، فيبدلون الحروف التى ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجا ، وربما أبعدوا الإبدال فى مثل هذه الحروف ، وهو لازم لئلاّ يدخل فى كلامهم ماليس منه ، فيبدلون حرفا بآخر ، ويغيرون حركته ، ويسكنونه ، ويحرفونه ، وينقصون ، ويزيدون . فما كان بين الكاف والجيم يجعلونه

---

(١) المزهر — ج ١ ص ١٥٩ ومابعدها .

جيما أو كافا أو قافا ، كما قالوا «كربج» و «قربق» (بمعنى الحانوت ، وذكر فيها الخفاجي «كربق» أيضا) . ويبدلون الباء المخلوطة بالفاء ، بالباء أو بالفاء ، نحو « برند » و « فرند » (فرند السيف أى جوهره) . ويبدلون الشين سينا ، نحو « دست » فى « دشت » ، و « سروال » فى « شروال » ، و « إسماعيل » فى « اشماعيل » ، لقرب السين من الشين . والحروف المبدلة عشرة : خمسة يطرد إبدالها ، وهى : الكاف والجيم والقاف والباء والفاء ، مما ليس فى كلامهم وهى المخلوطة . وخمسة لا تطرد ، وهى : السين والشين والعين واللام والراء ، وكل حرف وافق الحروف العربية . والحاء قد تبدل من الخاء ، كما فى « حب » و « خب بضم الحاء ، إناء معروف للماء قال أبو منصور : مولد ، وهو معرب « خب » ، وهو - بمعنى المحبة - عربى فصيح) ، وهذا كله أغلبى . وقال سيبويه : اعلم أنهم إنما يغيرون من الحروف ما ليس من حروفهم البتة ، فربما ألحقوه بكلامهم ، وربما لم يلحقوه . فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم ، فدرهم : ألحقوه بهجرع (وهو الأحمق المجنون ، والطويل الأعرج ، والكلب السلوق الخفيف . وهو على وزن درهم وجعفر) ، وبهرج ألحقوه بسلهب (وهو الطويل) ، ودينار ألحقوه بديماس (بكسر الدال وفتحها ، الحفير تحت الارض ، والحمّام ، والقبر) ، وديباج كذلك . وقالوا : إسحق ، فألحقوه بإعصار ، ويعقوب ، فألحقوه بيربوع ، وجورب ، فألحقوه بكوكب »[1] . ويروى السيوطى عن

---

(١) شفاء الغليل ، فيما فى كلام العرب من الدخيل - تأليف شهاب الدين أحمد الخفاجى ، أحد أعيان القرن الحادى عشر ، وقاضى العساكر بمصر . ط - القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ص ٤ - ٥

أبى حيان فى « الارتشاف » مايشبه ذاك إذ يقول : « الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام : قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها ، فحكم أبنيته فى اعتبار الأصل والزائد والوزن ، حكم أبنية الأسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهرج . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها . فلا يعتبر فيه مايعتبر فى القسم الذى قبله نحو آجر وسيسنبر (بكسر السين الأولى وفتح الثانية وسكون النون وفتح الباء ، نوع من الريحـــان يقال له النمام ' أهمله الجوهرى ، وذكره أبو حنيفة ، قال : وقد جرى فى كلام العرب ، قال الأعشى :

لنا جلسان عندها وبنفسج   وسيسنبر والمرزجوش منمنما) .

وقسم تركوه غير مغير [1] .

وسبق أن ذكرنا ماقاله السيد مرتضى الزبيدى، نقلا عن ابن جنى، حول الحروف الستة الذلق وهى اللام والراء والنون (ذولقية) والبـاء والفـاء والميم (شفهية) ' قال : « وفى هذه الحروف الستة سر ظريف ينتفع به فى اللغة ' وذلك أنه متى رأيت اسما رباعيا أوخماسيا غير ذى زوائد فلابد فيه من حرف من هذه الستة أو حرفين ، وربمـا كان ثلاثة ، وذلك نحو جعفر ، فيه الراء والفاء ، وقعضب (الضخم الجرىء الشديد ، واسم رجل كان يعمل الأسنة ' وقالوا أسنة قعضبية ' أى من صنعه) فيه الباء ، وسلهب فيه اللام والباء ، وسفرجل فيه الفاء والراء واللام ،

---

(١) المزهر ج ١ - ص ١٥٩ - ١٦٠

وفرزدق (الرغيف يسقط فى التنور ، وفتات الخبز . وقطع العجين ، ولقب شاعر مشهور) فية الفاء والراء ، وهمرجل (الجواد السريع ، وعم به السيرافى كل خفيف سريع ، والجمل الضخم) فيه الميم والراء واللام ، وقرطعب (تقول العرب ماعنده قرطعبة ، أى لاقليل ولا كثير) فيه الراء والباء . وهكذا عامة هذا الباب . فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية معراة من بعض هذه الحروف الستة فاقض بأنه دخيل فى كلام العرب وليس منــه . ولذلك سميت الحروف غير هذه الستة ، « المصمتة » ، أى صمت عنها أن يبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلاقة .

من كل هذا يتبين لنا مقدار الأهمية التى عقدها علماء العربية على الإنماء اللغوى ، مع العمل الدائب على فرض رقابة ساهرة على ذلك ، تؤمّن للغــة باستمرار ما يقيها من الجمود والتخلف ، أو من المسخ والتحريف ، وتجعلها دائما على مستوى الرقى الفكرى فى كل جيل من الأجيال .

وإذن فنحن إذ نهتم بمشكلة الدخيل ، إنما نسير فى نفس الطريق الذى سلكه أسلافنا فى محاولة الخلاص بهذه اللغة بين تيار الثورة الجارفة العارمة ، التى تريد أن تفتح الباب على مصراعيه للدخيل يأتى أكواما وأكداسا ، بعجرها وبجرها ، والعامى ، والملحون ، ومايخرق ناموس اللغة من ابتداع واختراع وتساهل واستهتار ، إلا أننا من جهة أخرى نحاول أن نتبين فى إطار ماسمحت به اللغة من الدخيل ، إلى أى حد تنجح المناهج

الجديدة فى التعريب ، فى سد الفجوات التى أحدثها التطور والرقى فى هيكل اللغة .

وقد مرت بنا إلى الآن كلمات كثيرة تتردد فى هذا البحث كالمعرب والدخيل ، والمولد ، والعامى ، والملحون . ولنحاول تحديد معنى لكل منها نتفق عليه :

١ ـ المعرب ، هو لفظ استعاره العرب الخلص فى عصر الاحتجاج باللغة من أمة أخرى ، واستعملوه فى لسانهم ، مثل : السندس ، الزنجبيل ، السراط ، الفسطاط ، الإبريق ، الاستبرق ... الخ .

٢ ـ الدخيل ، هو لفظ أخذته اللغة من لغة أخرى فى مرحلة من حياتها متأخرة عن عصور العرب الخلص الذين يحتج بلسانهم ، وتأتى الكلمة الدخيلة كما هى أو بتحريف طفيف فى النطق ، مثل : كوفية (وهى فى اللاتينية نوع من غطاء الرأس للنساء) ، وجمرك (من اللاتينية كمركيوم أى تجارة [1] وقد دخلت إلى العربية بواسطة التركية : « كمرك ») والبابور ، واللمبة ، والموتور ، والتليفون ، والتليفزيون ... الخ .

٣ ـ المولد ، وهو لفظ عربى البناء أعطى فى اللغة الحديثة معنى مختلفا عما كان العرب يعرفونه ، مثل : الجريدة ، المجلة ، السيارة ، الطيارة .. الخ .

---

(١) كوفية cophia وجمرك commercium

٤ ـ العامى ، وهو تحريف سوقى لألفاظ كانت من قبل عربية صحيحة ، مثل كـدا (عامية مصرية أصلها : كذا) ، شو ؟ (عامية شآمية أصلها : أى شىء هو ؟) ، بالزاف (عامية مغربية ، أصلها الفصيح «بالجزاف» أى كثير) .

٥ ـ الملحون ، وهو لفظ دخل عليه تغيير صوتى انحرف به عن الفصيح ، كقول المصريين « اتجوز » (أى تزوج) و « جوز » (أى زوج : صاحب زوجة أو زوج من الأحذية أو الجوارب) ، وكقول العرب فى الأردن وفلسطين « الجردون » ، (بمعنى الجرذان ، مفرده جرذ وهو الفأر) .

كان الشعور بضرورة مسايرة اللغة العربية للفكر واضحا منذ القرن الماضى . كتب الشيخ إبراهيم اليازجى فى الضياء ٢ ص ٤٥٠ :

« أصبح الكاتب مضطرا إلى وضع مئات بل آلاف ، من الأسماء التى لا يجد لها رديفـا فى لسانه ، ولا فى وسعه نقل تلك الألفاظ بصورتها إلى لغته ، لشدة التباين بين طبيعة هذه اللغة ولغات أولئك الأقوام ؛ لأن الألفاظ فيها محصورة الأوضاع ، محدودة الصيغ ، لا تقبل الزيادة عليها إلا منها ، ولا يمكن أن تدس اللفظة الأجنبية بينها إلا بعد أن تجانسها وتؤاخيها » .

ويقول محمد كرد على فى المقتبس ٦ ص ١٩٨ سنة ١٩١١ :

« منذ زهاء ١٠٠ سنة ، شعر الكتاب والمترجمون بالحاجة إلى

ترجمة بعض الألفاظ إلى العربية ، فبدأ بذلك الشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب « الجوائب » ، ووضع بعض الألفاظ العربية لمدلولات أفرنجية شاعت اليوم حتى كأنها من متن اللغـــة الأصلى ، ثم تبعه من جاء بعده ».

ويذكر الأستاذ أمين نخلة (١) أبياتا للشيخ الشدياق ، فيما يتكبده من عناء فى التعريب ، نقلا عن « كنز الرغائب » ٣ : ٢٣ .

إذا كان ربُّ البيت أدرَى بما به فإنىَ أدرَى بالذى أنا كاتبُ
ومن فاته التعريب لم يدرِ ما العَنَا ولم يصْلَ نار الحرب إلا المحارب
أرى ألف معنى ، ماله من مُجانس لديـنا ، وألفـا ماله مايناسب
وألفا من الألفاظ دون مُرادف وفصلا مكان الوصول، والوصول واجب
وأسلوبَ إيجاز إذ الحال تقتضى أساليب إطناب لتَدعى المطالب
وعكس الذى قد مرّ أكثر ، فانشد ألا أيهـاذا اللائمى والمعـاتب
فيـاليت قومى يعلمون بأنـــنى على نكد التعريب جدّى ذاهب

وهذه نماذج ذكرها الأستاذ أمين نخلة (٢) وغيره ، للمولد الذى تمخض عنه القرن التاسع عشر .

---

(١) الحركة اللغوية فى لبنان ، فى الصدر الأول من القرن العشرين ، للاستاذ أمين نخله ، الطبعة الثانية ـ بيروت، ١٩٥٨ ، ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) نفس المرجع - ص ٣٨ ـ ٤٣

من مبتكرات الشدياق :

الجريدة ، المؤتمر ، الحافلة (أى الاتوبيس) ، المنطاد ، المطعم ، السلك البرقى (أى التلغراف) .

من كلمات الشيخ خليل اليازجى :

الجواز (وثيقة السفر) ، الردهة ، القفاز ، النوط ، الصبحة (لطعام الصباح خاصة) الجديل (سير اللجام إذا كان حبلا مجدولا) .

وللشيخ نجيب الحداد : الصحافة .

وللمعلم شاكر شقير : المنظارة .

والدكتور خليل سعادة : آداب السلوك (يعنى مايسمى بالافرنجية الإتيكيت) .

والدكتور بشارة زلزل : مجموعة من المصطلحات الخاصـــة بعلم الاحياء ، مثل . الآحّ (زلال البيض) جمله الزلال عامة ، وكلمة الزلال لاغبار عليها ولاندرى لماذا تركها . الأمرط (لما ليس له ريش ولازغب من الطير) ، الانسلاخ (اتحول الهوام من حالة إلى حالة) ، الاشرع (الطويل الأنف من القرود) ، البطريق (وأصله السمين من الطير ، وسمى به الطائر القطبى المعروف فى الإفرنجية باسم البنجوان) .

واستمرت هذه الحركة فى القرن العشرين حيث نجد :

للشيخ عبد الله البستانى : الآنسة ، المقيلة ، الندىّ (= التليفون)

المصّاص (= الورق النشاف) ، الشارى (مانع الصواعق ، الجمع شراة ، من قول العرب : شرى بنفسه عن القوم ، تقدم بين أيديهم فقاتل عنهم .) ، والداهية ، الباقعة (وهما تدلان على العبقرى) ، الفرصاد (شجر التوت ، وثمره ولونه) ، ويبدو أن الشيخ عبد الله البستانى كان أحيانا يولّد من القديم ، وأحيانا يبعث هذا القديم من رمسه كما كثر نفس الأمر عند غيره ممن نحوا هذا المنحى .

وللدكتور يعقوب صروف : المصح (أى المصحة أو المستشفى) ، التلفزة (أى الإذاعة المرئية) ، النشوء والارتقاء ، الصلب (بمعنى الفولاذ) .

وللشيخ سعيد الشرتونى : العاديات (= الآثار) ، القطار (السكة الحديدية) القاطرة (الجرارة البخارية أو الكهربائية) .

والأستاذ سليمان البستانى : الملحمة (وهى مجموع الأساطير الشعرية حول الآلهة والأبطال ، كالإلياذة هوميروس ، التى ترجمها وعلق عليها سليمان البستانى نفسه) .

وللدكتور أمين باشا المعلوف : النفط (البترول) ، الغول (الغوريلا) السعن (الدلو من الجلد) والمسعن .

وللمعلم جرجس همام الشويرى : علم تدبير المال (سميناه نحن الاقتصاد) ، الطلاسة (ممسحة اللوح الأسود « السبورة ») ، التلفيعة (الشال حول العنق) ، النابع (القلم الذى حبره فيه) .

وللشيخ إبراهيم اليازجى : قال الأستاذ أمين نخلة « ولا يلحق فى هذا الباب غباره » : المجلة ، البيئة ، الحساء ، الدراجة ، الحاكى (الفونوغراف) ، اللولب (السوستة) ، الشمار (العلامة) الحسر (مرض فى العين) المقصلة (آلة الإعدام المسماه بالإفرنجية الجيلوتين) المقصف (البوفيه) الحوذى (العربجى) ، الشحنة ، الطارئة (الجالية ، وهى الجماعة التى تطرأ من أرضها إلى أرض أخرى) ، الطلاء ، البائنة (قال الشيخ عبد الله البستانى فى « فاكهة البستان » ، البوائن أضلاع الصدر ، وقيل الأكتاف ، والقوائم ، الواحدة بائنة ، حملا على الظاهر ، فإنها لم ترد حيث وردت إلا مجموعة) ، المستداد (قلم الحبر) ، المأساة (المسرحية المحزنة) ، المثابة (البورصة) ، المنضحة (الدش) دار النفاس (مستشفى الولادة) ، التبليد (التبنيج) ، استكراه النبات (معالجته بالطرق الصناعية حتى يزهر ويثمر فى غير أوانه) .

بعد هذه الجولة نريد أن نسأل : أى النهجين أوفق ، وأقرب لمصلحة اللغة العربية ، التعريب أم التوليد ؟ أخذ الكلمة الأجنبية والتعبير بها عن المعنى الجديد ، أم صنع كلمة من أصل عربى قديم والاصطلاح على أدائها لهذا المعنى الجديد ؟ هل استعمال « الهاتف » خير من « التليفون » و « زيت النفط » أولى من « البترول » ؟ نعتقد أن الالتجاء إلى المعرب والدخيل - على وجه التغليب لا القصر - أفضل وأكثر مسايرة لذوق أسلافنا العرب ، وأنجح فى حل مشاكل الألفاظ .

وأسلافنا العرب منذ الجاهلية استعملوا كثيرا من الألفاظ الأجنبية في لغتهم كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . استعملوا السجنجل « المرآة » والقنطرة ، والناموس (القاعدة والقانون) ، وعقر الدار ، والبلغم ، والتبر ، والبستان ، والدفتر ، والأسقف ، والابريز ، والاسفنط أو الأفسنتين (من أنواع الشراب) ، والأزميل ، والبلور ، والأخطبوط والأسطول . هذا فضلا عن ألفاظ كثيرة جاءت بعد ذلك من حضارات متباينة اتصل بها العرب بعد الإسلام ، فعرفنا كلمات مثل : الجهبذ ، الجوسق ، الجوق ، السنجـــاب ، القرقذان ، الفنجة ، السمنجوني (أو الاسمانجوني) ، الأسطرلاب ، القيروان ، الكهرباء ، الماخور ، المنـــدام .

وعلى ذلك فإن إدخال الألفاظ الأجنبية ليس بدعا ، ولا خطراً يخشى منه ، إذا تناوله الكتاب والعلماء والمستعملون للغة بما ينبغي من الوعي والاحتياط . وهو في تلك الحالة أقل تشويها للغة من المولد . نأخذ مثلا « الهاتف » : فإن أصل معناها عند العرب القدامى كائن خرافي ، أو عفـــريت من الجن ، يصيح بك فتسمع صوته ولا تراه . وانتقال هذه اللفظة إلى معناها التقني (التكنولوجي) وهو « التليفون » سيوقع في كثير من اللبس ، وسيجعل استعمال هذه الكلمة من جديد لهذا المعتقد العربي الفولكلوري القديم ، محفوفا بإمكانية الخلط بين معناها الأصلي والمعنى الحديث ، ولنتصور شاعرا معاصرا ينتظر حديثا تليفونيا من حبيبته ، ويطول انتظاره دون

جدوى ، فيامن « الهاتف » الذى أضرب عن الكلام ، أهو يأترى يلعن العفاريت ؛ أم هو يلعن هذه الآلة الحديثة لأنها لاتحمل إليه الصوت الناعم العزيز ؟ وفى هذا الصدد ينقل لنا الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى « دلالة الألفاظ » هذه القصة : « يروى أحد الأدباء أن ابنه الصبي كان يسمع فتيها يقرأ من سورة يوسف : وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، ـ فدهش الصبى ، وسأل والده : وهل كانت هناك سيارات فى ذلك الحين يا أبى ؟ »[1]

ولذلك نجد هذا المؤلف نفسه يشير على المتكلم عند الالتجاء إلى المولد بما يأتى[2] :

« أن يعمد إلى الألفاظ القديمة ذات الدلالات المندثرة فيحيي بعضها ، ويطلقه على مستحدثاته ، ملتمسا فى هذا أدنى ملابسة . وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ذلك الفوج الزاخر من الألفاظ القديمة الصورة الجديدة لا : كالمدفع ، والقنبله ، والدبابة ، واللغم ، والطيارة ، والطراد ، والسيارة ، والبريد ، والقاطرة ، والقطار ، والثلاجة والسخان (أو البراد والمسخن فى بعض البلدان العربية) ، والمذياع ، والذبذبات ، والتسجيل ، والجرائد ، والصحف ، والمجلات ، والمحافظات ، والأقسام ، والمرور ، وغير ذلك من آلاف الألفاظ التى أحياها الناس ،

---

(١) دلالة الألفاظ ، تأليف الدكتور إبراهيم أنيس الطبعة الثانية ١٩٦٣ القاهرة ص١٤٧

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٦

أو اشتقوها ، وخلعوا عليها دلالات جديدة تطلبتها حياتهم الجديدة .

وتتم هذه العملية عادة عن طريق الهيئات والمجامع اللغوية ، أو قد يقوم بها بعض الأفراد من الموهوبين فى صناعة الكلام ، كالأدباء والكتاب والشعراء . ثم تفرض تلك الألفاظ ، فى وضعها الجديد ، على أفراد المجتمع للتداول والتعامل بها ، غير أن بعضها يصادف القبول فيذيع ويشيع ، ويصبح بعد حين من الكلمات المألوفة المعروفة ، ويلاقى بعضها الصعاب والاعتراض ، فلا يكاد يظهر حتى يختفى من الاستعمال ، وقد يصل الشيوع بالدلالة الجديدة حدا تنسى معه الدلالة القديمة نسيانا تاما ، فلا يبقى لها أى أثر فى أذهان الناس . فمن منا الآن إذا سمع كلمة « السيارة » أو « القاطرة » يخطر فى ذهنه صورة القافلة فى الصحراء أو الناقة الأولى التى تسير القافلة على هديها ؟ » ثم يذكر المؤلف الحكاية القصيرة السالفة الذكر .

ومع ذلك فما نزال نفضل على « الهاتف » كلمة « التليفون » الدخيلة ، لأن الهاتف بمعناه القديم ما يزال صالحا للاستعمال . ثم إن كلمة التليفون ستتيح لنا أن نشتق منها فنقول « تلفن » مثلا ، والمعول فى كل ذلك ليس على صانع اللفظة ولكن على مستعملها ، فاللفظة إن كانت سهلة منسجمة مع الذوق اللغوى الموروث فرضت نفسها ، فالتليفون والفعل « تلفن » ظفرا بحق الحياة فى القصص والمسرحيات والسينما والصحافة وعلى ألسنة المتكلمين ، على حين ظل التلغراف بين إقدام وإحجام ، وفقد المعركة ، أو كاد ، أمام الكلمات المولدة « برق » ، « برقية » ، « أبرق إليه » ... الخ .

وللتوسع فى صنع الألفاظ المولدة خطر يأتى من صعوبة اتفاق الشعوب العربية جمعاء على مولدات موحدة . فكل شعب من شعوب الأمة العربية له صحفه وله أدباؤه وكتابه ، وله مجامعه اللغوية ، وله أيضا خلفيته التاريخية والحضارية واللغوية التى قد يخالف بها غيره ، ثم له ، من بعد ، ذوقه المحلى الإقليمى فى موسيقى الألفاظ ، وجرس الكلمات . وهكذا تنشأ لدى كل شعب ألفاظ مولدة للمعنى الواحد تختلف هنا وهناك بعضها عن بعض . فنحن مثلا فى مصر والشام نستعمل كلمة « المعرض » للمكان الذى تعرض فيه أنواع من المنتجات الزراعية والصناعية ، بينما يقترح القائمون على مصلحة التعريب فى المغرب كلمة « المشوار » لنفس المعنى . ونحن نقول فيما يلزم للسيارة مثلا من أجزاء بدل الأجزاء التالفة « قطع غيار » ، والمصلحة المذكورة تسميها « شماطيط السيارة » . ونحن نقول للآلة التى تضرب أو تخلط السوائل والعجائن « الخلاط » ، وهم يقترحون « المجدح » . وما نسميه « سيارة النقل » يريدون تسميته « دوسرة » وما يعرف عندنا باسم « المقطورة » يسمونها « دابرة » . و « الطابيخ » يريدون أن يقال له « قدير » ... وهكذا . ولو أننا انسقنا فى هذا التيار لبطلت حجتنا فى يوم ما على دعاة العامية إذ نقول لهم إن هناك عربية فصحى واحدة وعاميات كثيرة ، وأن حرصنا على الفصحى حرص على توحيد الفكر فى الأمة وجمع شمل شعوبها المختلفة ، ولن يحدث هذا إذا ذهب كل قطر من الأقطار العربية فى صناعة الألفاظ المولدة مذهبا لا يرجع فيه إلى الاتفاق مع الآخرين . وسيظل الدخيل أقرب إلى التوحيد فى هذه الحالة من المولد .

وليس الدخيل هو الخطر المحدق باللغة ، وإنما يكمن هذا الخطـر فى زعزعة النظام النحوى والصرفى لهذه اللغة ، وتشويهه ، وإحلال غيره محله . لأن ذلك هو النمط المرتبط بالفكر والذوق ارتباطا مباشرا ، وهو الذى يكون كالسمط الذى تنتظم فيه مراحل تاريخ الأدب والحضارة للأمة ، أما الألفاظ فإن دورها فى حياة اللغة وموتها أقل أهمية من النحـــو بكثير ، ومن الصرف وعلم التراكيب أيضا . وفى هذا يقول الأب رفائيل نخلة اليسوعى :

« قد أبدى العرب القدماء شدة ذكائهم وغيرتهم على لسانهم ، إذ أغنوه بآلاف الألفاظ الأعجمية التى لم يكن فيه مايؤدى معانيها ، غير أنهم قد جعلوها على صيغ عربية ، أو شبيهة بالعربية ، ولهم من المهارة فى ذلك التحويل مايقضى منه العجب . وايم الحق ، هل يخطر ببال غير الخبراء كون كلمة ترعة مقتبسة من الآرامية (١) ، بستان من الفارسية ، برج من اليونانية ، فصح من العبرانية ، قنبلة من التركية ، دينـــار من اللاتينية ؟

« أما ورثاء لسان العرب المعاصرون ، فنرى فيهم نفورا مفرطا من إغنائه باقتباس الكلمات الناقصة فيه من لغات الأعاجم ، مع أن أغنى لغات الغرب بالكلمات كالفرنسية والانكليزية والألمانية ، لاتزال تزيد ثروتها اللفظية على ذلك الأسلوب الرشيد . الكلمتان تلغراف وتليفون ،

---

(١) من مادة (ت ، ر ، ع) فى الارامية والسريانية ، ومعناها شق وحفر.

اليونانيتا الأصل ، قد اندمجتا فى قواميس أكثر لغات أوروبة ، وقد اشتقت منها أفعالا ونعوتا وظرفيات (adverbes) ، أما نحن فقد خفنا خوفا غير معقول من تشويه لغتنا باقتباسهما ، فسمينا التلغراف برقـــا والتليفون هاتفا ، وهما اسمان مبهمان لايدلان على المعنيين المقصودين دلالة واضحة . فعسى أن نقتدى برحابة عقل العرب الأقدمين ، وبغيرتهم الفطنة على لغتهم ، فنغنيها كما فعلوا ، بآلاف كلمات أعجمية ، نفرغها على مثالهم فى قوالب الصيغ العربية بقدر الإمكان . إنما الاقتراض علاج ناجع للعوز » [1] .

هذا كلام المؤلف ، وقد أبدينا رأينا فى الكلمتين اللتين ساقهما مثالا لما يريد . ونحن نوافقه على رأيه ــ كما ذكرنا آنفا ــ بشرط ألا تفوتنا كلمة « العوز » التى استعملها ، إذ هو شرط أساسى للاقتراض من الأجنبى ، أما إدخال ألفاظ أجنبية للتشدق والتفرنج فذلك إسهام فى إضعاف اللغة العربية ، والذين يفعلون ذلك يبدأ المرض فى نفوسهم بشعور وهمى بالانتماء الفكرى إلى مجتمع غير عربى ، فيجتثون أنفسهم من أمة العرب . وهؤلاء لا وزن لهم فى الدخيل الذى يستعملونه بدل العربى المساوى له فى المعنى ، والمتفوق عليه فى الأصالة ، مع جودة الجرس وانسجام الرنين . فالذى يقول « أوكى » بدلا من « نعم » ، والذى يقول : « باى باى » أو

---

(١) الاب رفائيل نخلة اليسوعي . غرائب اللغة العربية ــ الطبعة الثانية ــ بيروت ١٩٦٠ ــ ص ٢٨٦ .

« تشاو » بدل « إلى اللقاء » ، والذى يقول : بنجور وبنسوار ، مرسى ، بردون أو سُوري .. وما إليها ، بدل سلام عليكم أو سعيدة ، وشكرا ، وعفوا ، وآسف ، لايفعل ذلك إلا لأنه مصاب بعقدة الضعة ، يجد نفسه حقيرا إذا نطق بالعربية ، ويظن أنه إذا نطق بغيرها من كلام من يعتبرهم عظماء ، وسادة ، دخل فى زمرتهم .. ولكن هيهات !!

وهذا التحذلق بالدخيل الذى لاتمس إليه الحاجة ليس بدعا فى عصرنا ومجتمعنا ، بل نجده فى كل العصور واللغات والمجتمعات . وقد كانت هذه الظاهرة مصدر دعابات لاذعة عند كثير من كتاب المسرحيات الفكاهية فى جميع الآداب .

ونفس هذه الظاهرة هى التى يشير اليها الشهاب الخفاجى فى أول « شفاء الغليل » قائلا : قال الجاحظ فى البيان والتبيين : أهل المدينة نزل فيهم ناس من الفرس فعلقوا بألفاظهم ، فيسمون البطيخ « الخربز » ، والسميط « الروذق » ، والمصوص « المزوز » . وكذا أهل الكوفة يسمون المسحاة « بال » (وهى فارسية) ، ويسمون الحوك وهو نبات الحبق « باذروج » (وهى فارسية) ، ويسمون السوق « بازار » (وهى فارسية) ، ويسمون القثاء « خيار » (والخيار فارسى) ، ويسمون المجذوم « ويذى » [1] .

والذى يدعو اليه الأب رفائيل نخلة ، ونوافقه عليه ، هو إغناء

---

(١) شفاء الغليل — ص ٤

اللغة بالألفاظ التى لايوجد فيها مايؤدى معانيها فقط ، وذلك شأن غيرنا من الناطقين باللغات المختلفة ' ولو رجعنا إلى بعض سجلات الألفاظ فى معظم لغات العالم [1] لوجدنا أن (راديو) مستعملة بلفظها هـــذا فى خمس وعشرين لغة حديثة ، لم يشذ من بينها إلا الفرنسية التى يغلب فيها استعمال كلمة « لاسلكى » ، وذلك لأن كلمة راديو فى هذه اللغة شاعت فى معنى آخر هو « الأشعة » للأغراض الطبية وغيرهـا . كذلك لفظة (تليفزيون) المستعملة فى عشرين لغة من لغات العالم ، ولم يشذ عن ذلك إلا الألمانية والدانمركية والنرويجية والعبرية واليونانية .

وإذا كان الدخيل مقصورا على الألفـاظ فقط ، فإن المولد يصيب التعابير والجمل كما يصيب الألفـاظ ، وهو أمر له خطورته على اللغة بحيث ينبغى ألا نتركه بلا حسيب ولارقيب . وليس هو بالشىء الجديد فى اللغة العربية ولا فى غيرها من اللغات ؛ فمنذ القدم كان التعبير المترجم ، أو المستعار ، ظـاهرة من الظواهر التى لمحها الباحثون فى اللغــات ؛ والفرنسيون يسمونها المترجمات المستعارة .

وقد بدأت هذه الظاهرة تتضح فى اللغة العربية بعد قيام الحضـارة الاسلامية ' واستعـانت العرب بعلوم الأمم المتقدمة فى العـالم وفنونهـا .

---

(1) Peter M. Bergman. The Concise Dictionary of 26 Languages - 1963

فالعربي القديم كان يقول مثلا عن الشيء الذي انتهى وجوده : اختفى ، عدم ، انعدم ، مضى ، أبد ، أندثر ، انقرض ، ... الخ . لكن مع دخول الفكر اليوناني إلى المسلمين ، بدت كل هذه الأفعال وكأنما هي تعتمد على ملاحظة المتكلم نفسه ، فلا بد أن يكون الاختفاء أو الاندثار وما إليها قد لوحظ ته اولا ، أما أن يصبح الشيء لاشيء في ذاته ، وبالمعنى الفلسفي ، فإن « الانعدام » و « الاندثار » وما أشبهها قد بدت للفلاسفة العرب غير وافية بالمراد الفكرى العلمى الجديد ، فصنعوا لأجل هذا المعنى وعلى غرار اليونان والرومان ، الفعل « تلاشى » أى صار « لاشيء » .

ونفس هذا الأمر يقابلنا في محاولتهم التعبير فلسفيا عن الوجـــود والعدم . فإنهم شعروا بأن مثل هذه المصادر وراءها أفعال تجعل تصورها مجردة عن عملية مّا ، هي وقوع الحدث ، يكاد يكون مستحيلا . فكلمة الوجود تقترن بأن شيئا قد وجد بالفعل ، بل وربمـــا وثب إلى الذهن تفكير في الزمن والفاعل في نفس الوقت ، فشوه الدلالة المطلقة المجردة الفلسفية الوجود . وأحس أولئك المفكرون أن أداة النفى « ليس » تؤدى في باب الانعدام معنى مجردا إلى حد لابأس به ، فألحقوا بها أداة التعريف واستعملوا كلمة « الليس » اسما يدل على العدم الفلسفي ، ثم اعتمدوا على أن « ايس » مكونة في الأصل من « لا » داخلة على لفظة سامية قديمة هي « أيس » ، في رأى بعض اللغويين ، فاخترعوا لفظة « الايس » بدون لا النافية للدلالة على « الوجود » الفلسفي المطلق ، وأصبح « الايس » « والليس » يعنيان « الوجود والعدم » بمعناها الفلسفي الدقيق المعروف عند اليونان . فهذا من المولد في التعابير .

وكذلك كلمة (الفذلكة) بمعنى الخلاصة ، والملخص ، والكلام القليل الذى يحمل المعنى الكثير ، كل هذا جاء من اعتياد الكتاب فى دواوين الحساب تلخيص مادونوه من عمليات فى فقرة واحدة تحمل نتيجة الحساب وتبدأ عادة بعبارة (فذلك الحساب يحتوى على ...) .

وألفاظ كثيرة من هذا القبيل مثل : (ماهية الأمر) ، أى كنهه ، وهو الجواب على سؤال يبدأ بقولنا (ماهو ؟) ، (وهوية الإنسان) : أى بيان (من هو) ، و (ماجريات الأمور) ، و (الماصدقات) فى المنطق ، و (اللاأدارية) فى الفلسفة وعلم الكلام ، و (الهوهو) بضمتين ، وهو فى اللاهوت يعنى الاتحاد بالذات ، أى بالجوهر ، بحيث يصبح المتحد به (هو هو)[1] .

وهذا اللون من النحت والمزج ، للتجاوب مع مقتضيات الفكر الجديد ، داخل فى العادات اللغوية للعرب الأقدمين ، إذ كانوا يقولون :

ويلمّه : بفتح الواو وضم اللام وتشديد الميم ، والأصل (ويل لأمه) ، وقد استعمل ذلك للتعبير عن الدهشة إعجابا أو استنكارا ، حتى إذا لم يكن المتعجَّب منه ذا أم ، لأن أصل التعبير كان قد نُسى أو كاد ، قال المتنبى :

"ويلُمِّها خطةً" ، ويلمّ قابلها لمثلها خُلق المهرية القود

---

(١) غرائب اللغة العربية ، الاب رفائيل نخلة اليسوعى - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦٠ ، الفصل الثالث - الكلمات المنحوته - ص: ٥٥ - ٥٣

وكانوا يصفون المنافق بأنه (إمّعة) بكسر الهمزة وتشديد الميم المفتوحة ، وكذلك (إمّع) بدون تاء مربوطة ، لأنه يقول لكل من يرجوه أو يخشاه : إنى معك .

وقالوا : بسمل ، حمدل ، سبحل ، هيلل (قال لا إله إلا الله) ، حسبل (قال حسبي الله) ، حوقل (قال لا حول ولا قوة إلا بالله) ، حيعل (قال حي على الصلاة حي على الفلاح) ، دمعز (قال دام عزك) ، طلبق (قال طال بقاؤك) ، كبتع (قال كبت الله عدوك) ، مشكن (قال ما شاء الله كان) ، جعفد وجعفل وجعلف (قال جعلنى الله فداك ... الخ .

ويتعدى تطور اللغة الألفاظ والتعابير المولدة أو المترجمة إلى نوع من التطوير فى طريقة تصوير الفكر ذاته فى اللغة ، فباتصال العربية بالفرس والهنود والترك والسريان واليونان وغيرهم ، وباحتياجها إلى أن تصبح لغة علمية وأدبية وإدارية وفلسفية ، وحضارية على العموم ، تخلت عن كثير من صفات الجمال البدوى التى ، وأخذت مع الدخيل والمولد كثيرا من المستعار المترجم من التعبيرات ، فسلس قيادها ورقت ، وأصبح جمالها جمال حضارة رفيعة معقدة . يقول رينان : « ليس من الجدية فى شىء أن نسأل : أينبغى اعتبار اللغة العربية أعلى منزلة من اللغات السامية الأخرى ؟ إن اللغة العربيه تعبر تماما عن النمط الفكرى الذى قُدرت له ، وهو نمط مختلف تماما عن العبريه أو السريانية فهناك عدد كبير من ألوان التعبير التى لا تؤديها العبرية أو السريانية إلا بصعوبة ، أو لا تؤديها بتاتا ، بينما توجد لها فى اللغة العربية قواعد خاصة

بها فى النحو . فالأسلوب العربى له استفاضة وحرية لم تعرفها اللغات السامية الأقدم من العربية (فى رأيه) . وإن كان هذا التقـــدم لم يتيسر إلا نظير ثمن باهظ من العيوب التى لحقت هذه اللغة : فرنين المزاوجة القديمة الساحر ، الذى يعطى للشعر العبرى جمالا لا يحاكى ، قد كُسر فى العربية ، وانتصر فيها ، النمط الأسيوى ، بما فيه من محسنات بلاغية دقيقة ، ولطائف نحوية مختلفة ، حلت محل الجمال الوقور القديم . والعزاء عن هذا الفقدان هو أن اللغة العربية وجدت العوض عنه فى الوضوح التام ، والتحديد الكامل وهى مزايا أكثر لزوما للرسالة الجديدة التى كان على هذه اللغة أن تؤديها ، فقد وصلت اللغة العربية من ذلك إلى كل ما يمكن أن تصل إليه لغة سامية ، بالرغم من أن « كل ما يمكن » هذا ، هو فى ذاته قليل ضئيل . فمع كل جهود العربية فى علم التراكيب ، لم تصل قط إلى تلك الدقة الشفافة التى تبدو وكأنها وقف على اللغات الهندية الأوروبية (فى رأى رينان أيضا) . ففهم التعبيرات الأدبية كان دائما عملا متعبا للمسلمين ، ومعظم أولئك الذين يعرفون القـراءة منهم ، يقرأون بصعوبة ومن غير إحساس حى وسريع بالجملة ، تقريبا كما لو تخيلنا أن تحليل الجمل الذى عكفت عليه طفولتنا قد استمر معنا إلى سن النضوج » [1] .

---

(1) Ernest Renan: Histoire Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques - Paris 1855, p 361 - 362.

وإنه يكون من الخروج عما نحن بصدده أن نحاول دحض ما يزعم « رينان » ، وإنما نكتفى بالإلقاء على ملاحظته ، ونوافقه عليها ، وهى أن اللغة العربية مع عصور الحضارة الإسلامية قد اكتسبت ، كما قلنا وقال ، الكثير من المرونة والدقة واتساع إمكانيات التعبير فى الأدب والعلم وكل مرافق الحياة ، وإن كان ذلك على حساب الجمال البدوى الجليل الوقور الشامخ ، الذى اتسمت به الأساليب العربية قبل عصر الاختلاط الفكرى والحضارى ، ولعل هذا الاختلاط ذاته هو الذى أوجد فى الناطقين بالضاد من « يقرأون بصعوبة ومن غير إحساس حى وسريع بالجملة »

ومن أمثله المولد فى التعابير العباسية ، الذى يبدو وكأنه غريب على الفكر العربى القديم الخالص قولهم :

جرّ النار إلى قُرصه [١] : يقال للأنانى الذى يجر الجر إلى رغيفه هو ، دون أن يفكر فى الآخرين .

أبناء الدهاليز [٢] : أى الأوباش ، وحثالة الناس ، وأبناء الزنا ؛ وكأنه عكس « أبناء البيوتات » أو « أبناء القصور » .

الكعب المدوّر [٣]: يقال للمشئوم « كعبه مدور » ـ ذكر الشهاب أحمد الخفاجى

---

(١) الخفاجى ، شفاء الغليل ـ ص ٦٤ .
(٢) نفس المرجع ـ ص ١٩ .
(٣) نفس المرجع ـ ص ١٧٢ .

ذلك فى « شفاء الغليل » وذكر شعرا لبعض المولدين يخاطب فيه كأس الخمر فيقول :

أخْربتِ دارى ودارَ غيرى واصلُ ذا كعبكِ المدوّرْ

وعكس ذلك قولهم « كعبة مبارك » .

جاز القنطرة : [1] يقال للشخص إذا وصل إلى الدرجة التى إذا قدح فيه أحد بعدها لم يلتفت إليه الناس ، أى أنه أصبح فوق منال الذم والقدح . وكانت العرب الفصحاء تقول : « هو بحر لاتكدره الدلاء » .

ولو أننا جلنا خلال عصور اللغة العربية ، وفى الأقطار المختلفة للناطقين بها ، لوجدناها تتأثر طورا بعد طور ، ومكانا فى إثر مكان ، بما ساقته إليها المقادير من لغات ، تريد أن تعايشها ، أو تزاحمها ، أو تقضى عليها وتفنيها . إذ نشعر بالتعبيرات المستعارة من التركية ، ابتداء من الافتتاحيات الرسمية : حضرة ، أو : حضرة صاحب العزة ، أو السعادة ، أو الدولة ، أو الفخامة ، أو الجلالة ، إلى ما لا يحصى من الصيغ الإدارية والقضائية وغيرها ، ثم من اللغات الأوروبية العصرية ، وفى مقدمتها الانجليزية والفرنسية ، تجرى على أقلام الكتاب وفى أنهار الصحافة فلا يكاد يرتاب فيها أحد . مَن منا يظن أن قولهم « وضع النقط على الحروف » تعبير مترجم لم تألفه الآذان ولا الأقلام إلا بعد أن نقله الكتاب والمترجمون من الفرنسية [2] ؟ ومن منا يظن أن

(١) نفس المرجع ص ٦٢

(٢) Mettre les points sur les«i».

قول من يعاقرون الخمر « فى صحتكم » مترجم أيضاً عن الفرنسية [١] ؟ وأن استعمالنا لاصطلاح « اللاسامية » هو محاولة لترجمة اصطلاح أوروبى حديث [٢] ، وهى ترجمة مضللة ، إذ أن أوروبا ، إذا كان من حقها أن تستعملها فى معنى (معاداة اليهود) ، فلأن اليهود كانوا الساميين الوحيدين فيها ، بينما الشرق الذى نعيش فيه أصله كله من سلالات سامية ، هى غالبا أنقى فى ساميتها من اليهود على كل حال . هذا عدا كون الكلمة فى اللغات الأوروبية تبدأ بمقطع معناه النفى الإيجابى ، والضدّية المهاجمة ، مما يجعل ترجمته بلفظة « لا » السلبية المحايدة ، خطأ . وكان الأدق أن نقول « مناهضة اليهود » أو « عداء اليهود » فهذا أقرب إلى الواقع الذى تعبر عنه الكلمة الأوروبية ، وبالتالى إلى الصواب ، من هذه « اللاسامية » . كذلك الذين يتكلمون عن الاصلاح « الجذرى » ، وعن « جبهة المعارضة » ، وعن « التسويق » ، وما إليها إنما يستعملون مصطلحات وتعابير مترجمة .

كل هذا جيد لاغبـــار عليه إذا كانت حاجة المتكلمين تمس إليه وتقتضيه . إذ من غيره تجمد اللغة ، وتجف وتهرم وتموت ، لأن الفكر لن يقف أبداً حيث تقف ، ولأن ركب الإنسانية لن يؤخر سيره من

---

(١) A' votre santé

(٢) Antisémitisme

أجلها . ولكن اللغات ، خصوصا القديمة المسنة منها ، كما تقاسى أحيانا من النقص ، ومن العوز ، تقاسى كثيراً من التورم والتضخم والترهل ، والتراكم الذى لايفيد . بل إن هذا النمو غير الصحى يعوق حركة اللغة نحو الثراء الحقيقى ، الذى تظل به فتية نشيطة متصلة اتصالا وثيقا برقى الفكر . وفيما يتصل باللغـــة العربية يلخص إرنست رينان هذه الظاهرة بما مؤداه أن الثراء الخارق المألوف فى المفردات العربية ، يجر على هذه اللغة من المتاعب أكثر مما يوفر لها من الفوائد . فهو ينتهى إلى متاهات تجنى كثيراً على الوضوح . وإن الإنسان ليشعر بما يشبه الدوار عندما يرى كل تلك المعانى المختلفة ، والمتضادة تقريبا ، تزدحم فى المعاجم العربية حول كل لفظة . وربما كان هذا العيب يمكن تحمله ، أعنى عدم التحديد والتخصيص فى الدلالات ، لو لم تكن المعاجم نفسها تضخم الصعوبات وتزيد من تعقيدها فى هذا الصدد . فليس فى اللغة العربية حتى الآن ، وربما لايكون لها أبداً ، معجم تم تأليفه على أساس تصنيف منهجى لمصادر هذه اللغة ، مشفوعا كل مرة بالشواهد . أما الأوربيون من مؤلفى المعاجم العربية ، فإنهم حتى الآن لم يزيدوا على أن ترسموا آثار المؤلفين الشرقيين المعاجم . وهؤلاء ، مع أنهم قاموا بعملهم - والحق يقال - بكثير من الصبر والدأب ، كان يعوزهم الكثير من المنهج النقدى . فهم ، شأنهم شأن أمثالهم من جامعى مادة اللغة اليونان والسريان ، أكثر ميلا إلى ذكر المعانى الشاردة للألفاظ ، منهم إلى العناية بالمعانى العادية الضرورية . وكثيراً ما تكون المعانى التى يثبتونها غير حقيقية ، أو على الأقل غير مستعملة ، أو تكون أحيانا توسعات مجازية واستعارية ،

أو شروحا مأخوذة عن مفسرين مخطئين . وأخيراً نجد جانبا كبيراً من الألفاظ التى يثبتونها فى مصنفاتهم يبدو أنها تعابير محلية إقليمية ، أو أجنبية ، أو خاصة ، لاتقابلنا أبدا . كل ذلك قد جعل من المعجم العربى خليطا عجيبا ، يمكن بشىء من قوة الإراده أن نجد فيه أى شىء نشاء . والمبدأ العام هو أنه ينبغى أن نعتبر لاغيا ، فى ميدان فقه اللغة المقارن ، أى لفظ ، وأى معنى للفظ ، لم يأت عليهما شاهد من كلام العرب ، ولم يعتمدا إلا على نقل مؤلفى المعاجم . (١)

وإذن فها نحن أولاء أمام هذه البداية المقلقة . وقبل أن نفض منها الكلام عن صناعة المعاجم ، يجدر بنا أن نعرض لما أشرنا إليه من مظاهر التضخم المنهك للغة , وعلله وأسبابه .

---

(١) أرنست رينان- المرجع السابق ذكره . Ernest Renan; Op. Cit. p. 362

— ٣ —

مظاهر التضخم اللغوى

الأصل فى وضع الألفاظ فى اللغات المختلفة ، أن يكون لكل معنى يجول بالخاطر لفظ يعبر عنه ، أى أن يكون للفكرة الواحدة لفظة واحدة، وللكلمة الواحدة معنى واحد أيضا . ويبدأ الخلط والاضطراب بمجرد أن يوجد لفظان فأكثر لمعنى واحد ، أو معنيان فأكثر للفظ واحد . وإن كانت اللغات جميعا لا تنجو من هذه الإصابة بقدر مّا ، قل أو أكثر .

ووجود لفظين أو أكثر لمعنى واحد هو ما يسمى الترادف .

ووجود معنيين أو أكثر للفظ واحد هو ما يسمى الاشتراك .

وإذا اشترك فى لفظ واحد معنيان متناقضان سمى ذلك التضاد .

الترادف :

يذكر السيوطى فى « المزهر » أقصوصة طريفة حول المترادف ، عن أبى على الفارسى ، قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب . وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما . فابتسم أبو على وقال : ما أحفظ له إلا اسما واحدا ، وهو السيف . قال ابن خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا ، وكذا ؟

فقال أبو على : هــذه صفـات ، وكأن الشيخ لا يفـرق بين الاسم والصفـة [١] .

وانطلاقا من هذه الأقصوصة ، نقول إن جانبا كبيرا جدا مما يملأ كتب اللغة من ألفاظ تدل على معنى واحد ، هى صفات للمسمى ، وليست بأسماء أخرى له . ولكن ، تظل هناك مشاكل كثيرة حول الترادف ، سواء أكنا مع من ينكرونه ، كأبى على الفارسى ، أم مع يثبتونه ، كابن خالويه ، أم مع من يقرّ به كأمر واقع دون أن يكون ظاهرة طبيعية فى اللغات ، كالبيضاوى فى « المنهاج » ' الذى يذكره السيوطى مع من ذهبوا إلى أن الترادف على خلاف الأصل ' والأصل هو التباين كما سنراه فى رأى ابن فارس .

فكيف إذن يظهر الترادف فى اللغة ؟

فى رأى اللغوى الفرنسى دارمستيتر الذى ذهب إليه فى كتابه « حياة الألفاظ » أن بعض الألفاظ مع تكونها ودورانها على الألسنة تأخذ شكلين مختلفين ، يصبحان مع الاستعمال مترادفين [٢] . وعندنا فى العربية ما يؤيد ذلك مثل : جذب وجبذ . وفم وفوه . وإنس وإنسان . وهذا هو أول أسباب الترادف .

---

(١) المزهر ، ج ١ ص ٢٤٠

(٢) Arsène Darmesteter: La Vie des Mots ; Paris 1932 — p. 138 ss.

وثمة سبب آخر ، إذ يحدث أحيانا أن تدخل فى اللغة مجموعة من اللهجات المحلية المتباينة ، كل منها ببعض ثروتها من المفردات ، وفيها ما يتفق مع بقية اللهجات، كما أن فيها ما يختلف ، فيظل هذا المختلف موجودا جنبا إلى جنب فى نطاق هذه اللغة الواحدة . وهو ما حدث لكثير من لغات العالم الكبرى ومن بينها العربية . يقول السيوطى نقلا عن علماء أصول الفقه : « تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر ، للمسمى الواحد ، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر ، وهذا مبنى على كون اللغات اصطلاحية . »[1] وهذا السبب ، أى الوحدة السياسية واللغوية التى تقوم بين كتل بشرية كانت مجزأة ، يعتـــبر من أهم أسباب ظهور المترادف فى اللغات . والمثل المشهور فى ذلك هو استعمال السكين والمدية[2].

ويتصل بهذا أن تكون فى اللغة لفظة لمعنى من المعانى، ثم تأتيها — من لغة أجنبية — ألفاظ بنفس المعنى ، فتأخذ مكانها فى المترادف . فمن ذلك « الخمر » ، وهى الكلمة العربية العامة للشراب المسكر ، ثم نجد بجانبها « الإسفنط» و « الخندريس » من أصل يونانى ، ونجد « الصهباء » العربية ، وهى الخمر الصفراء اللون ، إذ « الأصهب » هو الأشقر تقريبـــا ، ثم تأتى لفظة « الزرجون » من الفارسية : « زر » أى ذهب ، و « كون »[3] أى لون ؛ فتأخذ

---

(١) المزهر ، ج١ ص ٢٤١

(٢) ارجع مثلا إلى لسان العرب لابن منظور ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين بن الأثير الجزرى — فى مادة (مدية)

(٣) بكاف فارسية مجهورة كالجيم غير معطشة فى لهجة مصر مثلا .

مكانها فى مجموع المترادفات الدالة على الخمر أيضا . ومن ذلك الطبيب ، وهى الكلمة العربية ، و « الآسى » التى دخلت من الآرامية ؛ مأخوذة عن البابلية ، التى أخذتها بدورها عن الشومرية ، حيث كانت الكلمة تتكون من : « آب » أو « آ » أى الماء ، و « سو » أى عالم أو عارف أو خبير ؛ فيكون « آسو » معناه فى الأصل الخبير بالمياه ، أو العالم بالسوائل .

ومن أسباب الترادف أيضا أن تجرى صفة من الصفات على ألسنة المتكلمين يطلقونها على مسمى معين ، ثم تشيع ، وتنوب عن الاسم فى التعبير عن هذا المسمى ، وتنتهى بأن تصبح مرادفة له . وهذا ماعناه أبو على الفارسى فى الخبر الآنف الذكر . وكذلك تسمية الأسد : العباس ، من « العبوس » وهو التجهم والتكشير وظهور الغضب ، وتسمية السيف ، الفيصل ، لأنه يفصل أجزاء الجسم بعضها عن بعض ، والمهند ، لأنه وارد من الهند ، واليمانى ، لأنه آت من اليمن ، والحسام ، لأنه يحسم ، أى يقطع ويفصل .

ويلحق بهذه الظاهرة ما يبتكره الأدباء من ألفاظ وصفات ، وتحميلها معانى شعرية أو فنية ، ينوعون بها الجرس الموسيقى ، أو يأتون بها الواحدة تلو الأخرى للتأكيد ، أو للإطراف وإظهار البراعة ، أو للسجع ... الخ . فمن ذلك تسمية السماء : القبة الزرقاء ، والجرباء (لأنها تبدو وفيها بقع بيض من النجوم) . وتسمية الأرض : الغبراء ، والبسيطة ، والأديم ، والثرى . وتسمية الحب الهوى ، والغرام ، والعشق ، والوجد ... الخ .

وكذلك يحدث أيضاً أن يكون فى اللغة لفظان لمعنيين متجاورين ، أى كل منهما قريب الشبه من الآخر ، ولكنهما مع ذلك مختلفان ؛ ثم يختفى الفرق بينهما مع طول الاستعمال ، ويعتبران من المترادف . فمثلا : الريب والشك . كانا مختلفين . فالشك : هو التوقف بين طرفَىْ قضية نفيا وإثباتا ، والعجز عن الترجيح ؛ وهو موقف مزعج يشبه الشعور بالوخز ، أى الشك بالإبر مثلا . أما الريب : فأصله الغليان والثوران والاضطراب الذى يصيب اللبن عندما يروب ، وهو موقف نزاع وتخبط وثورة . ولكن اللفظتين وصلتا مع الاستعمال إلى التساوى فى المعنى ، أى الترادف . وقال المفسرون فى قوله تعالى « ذلك الكتاب لاريب فيه » أى لاشك فيه . والأقرب أنه بمعنى لانزاع فيه ولا خلاف عليه من حيث كونه هدى للمتقين .

وكذلك السبع والأسد ، أولهما عام لجنس الضوارى كله ، والثانى فصيلة منه ، ولكن الاستعمال جعلهما مترادفين فى كثير من الأحيان .

ومن المعرب الذى فيـــه تلك السمات الفعل « زخرف » ، والفعل « زركش » ، فهما يدلان عادة فى أذهان الناس على الزينـــة والحلية والتنميق ، وهما مترادفان . مع أن « زخرف » آت من اليونانيـة « زو » أى حيوان و « غراف » أى الرسم والكتابة ، وهكذا تكون الزخرفة فى الأصل برسم الحيوانات ، على حين أن « زركش » مأخوذ من الفارسية « زَر » أى ذهب و « كَشيدَن » أى سحب وبسط ، فهو الطلاء بالذهب .

ولكثرة المترادف فى اللغات قامت فى كل لغة دراسة له ، ووجدنا فى كثير منها معاجم خاصة به ، نقطة البدء فيها هى محاولة إيضاح الفرق فى المعنى أو الأصل أو الاستعمال . وفى لغتنا العربية من هذا كتابان أحدهما للشيخ ابراهيم اليازجى وهو (نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، فى المترادف والمتوارد) [١] ، والثانى للاب رفائيل نخله اليسوعى ، وهو (قاموس المترادفات والمتجانسات) [٢] . وقد رتب اليازجى كتابه بحسب الموضوعات ، بينما رتب الآب رفائيل نخلة على حروف المعجم ، وكلا الكتابين بعيد عن استقصاء جوانب المشكلة أو حلها حلا عمليا علمياً معاً .

المشترك :

جاء فى كتاب « الصاحبى فى فقه اللغة » لأبى الحسين أحمد بن فارس قوله فى باب الأسماء كيف تقع على المسميات : « يسمى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين ، ذلك أكثر الكلام ، كرجل وفرس . وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد ، نحو : عين الماء ، وعين المال ، وعين السحاب . ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة ، نحو السيف ، والمهند ، والحسام » . [٣]

---

(١) جزآن ، طبع حريصا ، فى لبنان ، الطبعة الثانية عام ١٩١٣ .

(٢) جزء واحد فى ٢٦٥ صفحة من القطع الصغير ، طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٥٧ .

(٣) الصاحبى فى فقه اللغة ، وسنن العرب فى كلامها ، لأبى الحسين أحمد بن فارس ، حققه وقدم له مصطفى الشويمى - دكتور فى الآداب - بيروت - ص ٩٦ .

ففى تقسيم ابن فارس هذا ، نجد القسم الأول ، وهو ، الألفاظ المادية فى اللغة ، التى يختص كل واحد منها بمعنى واحد فقط ، والقسم الأخير هو المترادف الذى انتهينا من التعريف به . أما القسم الثانى ، وهو اللفظ الواحد له أكثر من معنى ، فهو المشترك . وهو قليل جدا فى اللغة ، بالرغم مما يبدو من كثرته . وإنما مصدر هذه الكثرة هو التوسع المجازى فى المعنى ، وتنويع المعانى انطلاقا من دلالة واحدة . فالأصل فى العين مثلا أنها تدل على عضو الإبصار الذى يرى به الإنسان والحيوان ، أما دلالتها على عين الماء ، فلأن هذه تبدو للوارد دليها من أعالى الصحراء قطعة لامعة من الماء يحف بها النبات ، فتكون أشبه بالعين بأهدابها . والعين ، بمعنى الدراهم والدنانير ، سميت كذلك من نقد هذه النقود ، وعدم جعلها دينا أو مؤجلة ، أى أنها تبرز تحت عين الطرفين ، ولذلك يقولون : « أعطاه الثمن عينا » أى نقدا ، و « أعطاه إياه نسيئة » أى دينا . والعين من أعيان الناس ، وهم وجهاؤهم ، لقيمتهم فى المجتمع التى تشبه قيمة العين فى الأعضاء (ونلاحظ أن الوجهاء أيضا تأخذ معناها من الوجه) . وعين الشىء ، أى نفسه ، تعبير من الكل بالجزء . والعين بمعنى الإصابة بنظرة حاسدة ، لأن العين ، أى عين الحسود ، هى المتسببة فى هذه الإصابة عند من يعتقدون ذلك . والعين ، أى ثقب الإبرة ، لأن النور يدخل منه كما يدخل من العين المبصرة . كل هذا توسع ، والمعنى اللغوى الأصلى هو العين المبصرة لاغيرها .

كذلك قد يحدث الاشتراك بسبب وجود كلمة فى صيغة الجمع أشبهت أخرى فى صيغة المفرد ، مثل « النوى » ، جمع نواة ، و « النوى »

البعد . وهذا من الاشتراك الكاذب الذى قلما يوقع فى احتمال التأويلين عند الاستعمال ، إلا إذا تكلف ذلك بعض من يريدون التورية وما يشبهها من دقائق البديع . كذلك من الاشتراك الكاذب تشابه اسم وفعل فى النطق ، مثل الفعل « هوى » أى سقط ، و « الهوى » الذى هو ميل النفس ، والحب . ومنه أيضاً تشابه صيغ مختلفه الأصل والاشتقاق على العموم . ومن أكمل أمثلة ذلك ، وأثقلها أيضاً ، قصيدة المعلم بطرس كرامة (توفى سنة ١٨٥١) التى تسمى « القصيدة الخاليّة » - بالتشديد - لأن كل قوافيها كانت كلمه « خال » ، بمعنى مختلف ، وهى طويلة نذكر منها [1] :

أمن خدّها الوردى أفتنك الخالُ ... فسحّ من الأجفان مدمعك الخالُ

وأومضَ برقٌ من محيّا جمالها ... لعينيك أم من ثغرها أومض الخالُ

رعى الله ذيّاك القوام وإن يكن ... تلاعبَ فى أعطافه التيهُ والخالُ

ولله هاتيك الجفونُ فانها ... على الفتك يهواها أخو العشق والخالُ

مهاةٌ بأبى أفتديها ووالدى ... وإن لام عمى الطيب الأصل والخالُ

فالخال الأول : هو الشامة السوداء على الخد ، والثانى السحاب ، والثالث البرق ، وهما من الفعل خال بمعنى ظهر ومثل ، ومنه :

---

(١) القصيدة الخالية مذكورة فى كتاب : نفح الازهار فى منتخبات الاشعار ، جمع شاكر البتلونى ، ضبط وتصحيح الشيخ ابراهيم اليازجى — الطبعة الثامنة ، داركرم ، بدمشق ، ص: ٢٠ — ٢١

خيال الشخص ، وجاء من ذلك التخيل . والخال الرابع ، هو الشموخ والتكبر ، مثل الخيلاء ، والخامس لغة فى الخالى ، وهو عند المشغول والسادس هو أخو الأم ، وقد يكون هذا هو المشترك الصحيح مع الخال الذى بمعنى الشامة فى الوجه ، أما الباقى فأكثره توليد وتنويع وتفريع وتكلف .

ومن الأسباب الرئيسية لوقوع المشترك فى اللغة ، وجود كلمة ، هى هى من حيث اللفظ عند أكثر من قبيلة ، مع اختلاف المعنى أو الاستعمال فى كل من هذه القبائل ، فإذا ماحدثت وحدة بينها اكتسب اللفظ أكثر من معنى من القبائل التى كانت تستعمله .

ففى العربية الفعل « شحط » مثلا يكون بمعنى ملأ ، يقال شحط الإناء . ويكون بمعنى أضاف ماء كثيراً ، يقال شحط اللبن ، كما يكون بمعنى اللسع واللدغ ، يقال شحطته العقرب ... الخ .

ومن ذلك « السرداح » ، و « السرداحة » ، بمعنى الناقة الطويلة ، وقيل الشديدة التامة . ويكون معناه الجماعة من شجر الطلح ، الواحدة سرداحة . والأرض السرداح المستوية ، والبعيدة .

ومن ذلك (الدردبيس) وهى الداهيـــة ، والشيخ الهرم ، والعجوز الفانية .

ومن ذلك (الخلابيس) وهى الاباطيل ، أو القوم المتفرقون من

كل وجه ، أو الأشياء التى لا نظام لها ولا تجرى على استواء ، أو اللئام والانذال . قال الشرتونى : لايعرف منها مفرد ، أو مفردها خلبيس ، وخلباس . والعوام عندنا يتشاءمون بلفظة (الخلبوص) ، وهو فى غير الشتائم رجل كان يتقدم مواكب الزفاف مفسحا الطريق للطبالين والزمارين ، وكان يصيح ويهلل ويقفز ويرقص . ويقال له (خلبوص الطبل) أو (خلبوص الزفة) .

ومن ذلك (القردوع) مثل جمهور : القملة الصغيرة ، والقردوعة : الزاوية فى شعب أو جبل ، وجمعه قراديع .

ومن الملاحظ أن المشترك يكثر على الخصوص فى الألفاظ الحوشية أو الغريبة غير الدائرة على الألسنة ولا فى نصوص الأدب ، ولعل ذلك آت إلى حد ما ، لا من اشتراك حقيقى ولكن من دلالات أعطاها الشراح واللغويون لهذه الألفاظ الغريبة ، ونحن نعلم أن أهل اللغة يعطون ألفاظها وتراكيبها فى ثنايا مايخلفون من تراث ، أما شرح المعانى فالمسئول عنه هم اللغويون ، وهؤلاء يخطئون ويصيبون ، ويختلفون فيما بينهم ، لاسيما إذا شحت النصوص الواضحة التى يتحدد فيها معنى لفظة من الألفاظ . وهذا أمر ما يزال فى حاجة إلى مزيد من التحقيق والتدقيق من اللغويين الجدد ، لاسيما بعد أن أصبح فى متناولهم أن يطرقوا باب علم اللغة المقارن ، وأن يعيدوا على هداه النظر فى بعض ما ألصق بشوارد اللغة من المعانى .

الاضداد :

إذا وصل التباين بين معنيين مشتركين فى لفظ واحد إلى درجة التناقض والتعاكس ، اعتبر هذا اللفظ من الاضداد ، وهذه الظاهرة فى اللغة لها أسباب أهمها :

١ ـ التعبير بالضد عمدا للتفاؤل ، أى بتأثير العقائد الدينيـــة أو الفولكلورية . فمن ذلك تسمية الذى لسعته العقرب أو لدغته الحيـــة « السليم » ، وكأنه دعاء له بالسلامة مما أصابه ، وتسمية الركب المسافر « قافلة » ، أى راجعة ، تفاؤلا لهم بالعودة سالمين ؛ وقد غلبت كلمة قافلة على كلمة ركْب ، حتى كادت هذه الأخيرة أن تكون نادرة الاستعمال بالقياس إلى القافلة .

٢ ـ أن تكون لفظة مّا مستعملة فى معنى « وَسَط » ، ثم يتحدد فى مجموعتين من المتكلمين (قبيلتين مثلا) بحيث ينحاز معناها فى إحداها إلى طرف قصى بالنسبة للمعنى الوسط الذى كان عليه أولا ، وينحاز فى القبيلة الأخرى إلى الطرف القصى الآخر ، فينتهى ذلك بأن تكون له فى كل قبيلة دلالة عكس الأخرى ، ثم تحدث وحدة لغوية لسبب ما بـــين القبيلتين ، فتصبح الدلالتان المتطرفتان جاريتين على هذا اللفظ الواحد ، ويدخل حينئذ فى الأضداد . فمثلا لفظ « السدفة » : معناه الأصلى الغَلَس أو الغَبَش ، وهو اختلاط الضوء والظلمة معا ، كوقت ما بين الفجر

والصبح ، وقد قال السيوطى (١) نقـــلا عن باب الأضداد فى كتاب « الغريب المصنف » لأبى عبيد : « السدفه فى لغة تميم : الظلمة ، والسدفة فى لغـة قيس : الضوء . ويدخل فى ذلك البـاب لفظ « الجـــون » ، وهو فارسى معرب معناه اللون ، ولـكن استعمله بعض العرب وخصصه للأبيض ، والآخرون الأسود ، فصار من الأضداد .

٣ - قد يكتسب اللفظ على ألسنة بعض المتكلمين دلالات جانبية ، إما لعـدم الدقة فى التعبير ، وإما للخلط بين معنى لفظ ومعنى لفظ آخر قريب منه ، وإما للتفاصح والإعـــراب فى الكلام ، فيئُول بعض معانى الألفاظ إلى التضـاد نتيجـــة لخطوات متعاقبة من التساهل والتحريف . فمن ذلك « الظن » الذى أصبح معناه : الشك ، واليقين و « الصريم » ومعناه : الصبح والليل ، وأصله من انصرم أى انتهى و « الصارخ » معناه : المغيث ، والمستغيث .

ونود قبل أن ننهى هذا الحديث أن نشير إلى أن الاشتراك والتضاد الآتيين من تعـدد الدلالات فى مجاميـع بشرية من الناطقين باللغـــة ، لهما عند اللغويين شرط هام ، وهو أن تـكون هذه القبائل المتميزة ناطقة بلغة عامة واحدة ، ربمـا كانت لـكل قبيلة فيها لهجة خاصة . ولـكن كلام القبيلتين ، أو المجوعتين البشريتين يدخل فى نمط واحد من النحو والصرف والاشتقاق . أما إذا كان جـرس الـكلمة واحـدا

---

(١) المزهر . ج ١ ، ص ٣٣٤

فى لغتين كل منهما أجنبية عن الأخرى ، أو فى لهجتين متباعدتين بعدا شاسعاً ، لم تعتبر هذه الظاهرة لفظة واحدة ذات معنى مشترك أو متضاد ، وإنما هما لفظتان مختلفتان فى الأصل متشابهتان فى الصوت والنطق .

وفى ذلك ينقل جلال الدين السيوطى فى باب الأضداد من المزهر [1] الأقوال الآتية : (قال فى الجمهرة) ، (الشعب) الافتراق ، و (الشعب) ، الاجتماع ، وليس من الأضداد ، وإنما هى لغة لقوم . فأفاد بهذا أن شرط الأضداد أن يكون استعمال اللفظ فى المعنيين فى لغة واحدة . وقال الأزدى فى (كتاب الترقيص) ، أخبرنا أبو بكر بن دريد (صاحب الجمهرة) ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عمه (يعنى الأصمعى) قال : خرج رجل من بنى كلاب ، أو من سائر بنى عامر بن صعصعة ، إلى ذى جدن (ملك اليمن) فأُطلع إلى سطح والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : (ثِبْ) أى اقعد ، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع . ثم وثب من السطح ، فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن (الوثب) فى كلام نزار (التطمر) أى (القفز والوثوب) . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من ظفر حمر ؛ أى من أراد أن يقيم بظفار فليتكلم الحميرية) . فليس معنى الجلوس والقفز مشتركا فى

---

(١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٣٤

الفعل وثب ، لأن الأول فى لغة اليمن ، والثانى فى لغة نزار ، وهما لغتان مختلفتان .

كذلك اشترط بعض اللغويين ألا تكون الأضداد نتيجة توسع مجازى أو نحوه فى التعبير ، وفى ذلك ينقل السيوطى عن القالى فى « الأمالى » قوله : الصريم الصبح ، سمى بذلك لأنه انصرم عن الليل ، والصريم الليل ، لأنه انصرم عن النهار ، وليس هو عندنا ضدا . وقال : النطفة الماء ، تقع على القليل منه والكثير ، وليس بضد .

وهكذا تكثر الشروط حول الأضداد ، حتى تنتهى ببعض اللغويين ، كابن درستويه ، إلى إنكارها إطلاقا . قال السيوطى [١] نقلا عنه فى شرح (الفصيح) : النوء ، الارتفاع بمشقة وثقل ومنه قيل للكوكب « قد ناء » إذا طلع ، وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضاً ، وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم فى ذلك فى كتابنا فى إبطال الأضداد (انتهى) . فاستفدنا من هذا أن ابن درستويه ممن ذهب إلى إنكار الأضداد ، وأن له فى ذلك كتابا مؤلفا .

---

(١) نفس المرجع السابق .

ومهما يكن من شيء ، فالامر الواقع هو أن هناك أعـداداً كبيرة مما يسمى بالمترادف والمشترك والأضداد ، يعتبر أكثرها من التضخم المنهك للغة كما قلنا ، وإن كان المتكلمون الكتّاب أقل إكتراثا بها من اللغويين ؛ وبالتالى هم أقل معاناة من ثقلها ، ورزوحا تحت أعبائها .

— ٤ —

المعجميات

الأصل فى اللغة أن تكون منطوقة لا مكتوبة ، دائرة على الألسنة لا مسجلة فى بطون الكتب . وقد ظلت اللغات دهرا طويلا لاتعرف الكتابة ولا تفكر فيها ، حتى إن بعض اللغات القديمة نشأت كما قلنا ، وترعرعت ، ثم اندثرت قبل اختراع الكتابة ، فضاعت تماما . ومن تلك اللغات : السامية الأم ، التى أنجبت العربية والأكادية والآرامية والكنعانية ، وماتفرع عن هذه من بعد من لغات ولهجات .

والأصل فى ألفاظ اللغة أن تكون كلها مفهومة من الناطقين بهذه اللغة ، متداولة بينهم ، جارية على ألسنتهم ، لايحتاجون إلى إيضاح شىء منها ، ولايسألون عن شرح أية كلمة فيها .

ولكن اللغة مادة رجراجة ، مائعة ، دائمة التموج والتحول . لأن البشر عندما اخترعوها ، أرادوا لها أن تكون « آلة الفكر » تؤمن التعبير عنه ، وتداوله وتطوره . والفكر لاحدود له ، ولانهاية لتطوره . ومنذ اللحظة الأولى التى صنع فيها هذا الفكر اللغة نفسها ، راح يتحداها ، وأدخلها معه فى سباق يكاد يكون غير عادل : هو ينطلق دائما إلى آفاق جديدة ، ويرقى نحو الأسمى ، وهى فى أثره تحاول جاهدة أن تبقى على مستواه ، وأن تتقدم بنفس سرعته .

وإذا كانت الطبيعة الأصلية للغة فى المجتمع الواحد أن تكون واحدة على كل لسان ، فإن الطبيعة الأصلية للفكر أن يتوزع أجزاء على كل عقل ، بحيث يكون مجموع ماحظيت به كل العقول من أقسام الفكر هو التراث الفكرى ، أو الثروة الفكرية للمجتمع . فرجل الدين له شريحة من الفكر غير الطبيب أو المهندس أو الجندى أو البحار أو السياسى أو الشاعر أو الفلاح أو الفيلسوف أو ربة البيت ... إلى مالايكاد ينتهى من فئات البشر بحسب نشاطهم ، وإسهامهم فى بناء العالم الذى نعيش فيه ، أو هدمه .

والمفروض فى الأصل أن تكون اللغة ملكا للأحياء ، لأن الأموات لا يتكلمون . أما الفكر فيورث ، وينبنى بعضه على بعض ، ويتعاون فيه الأموات مع الأحياء ، السلف ، من أقدم العصور ، مع الخلف ، إلى اخر الدهر .

لهذا فإن اللغة التى هى آلة الفكر وخادمه ، تتسع وتتسع حتى لايمكن أن يحيط بها لسان واحد ، ولا عصر واحد ، كما أن ألفاظها ، وحتى قواعدها النحوية ، تتفاوت فى العموم والشيوع والانتشار ، على نحو يقل ويكثر بين المتكلمين ، لأن الإنسان أصبح يفكر عن طريق اللغة ، فأصبحت اللغة أيضا من تراثه الفكرى .

ومع رقى الفكر ، وظهور النصوص الأدبية والدينية ، ارتبط الانسان باللفظ ، وتعلق به ، وقدسه ، وحفظه ، وتوارثه وتناقله .

ومع اختراع الكتابة قيد من ذلك ما استطاع حتى يخلده للأجيال .

ومع الزمن ازدادت الحصيلة ، وتضخمت ، واستعصى كثير من محتوياتها على الأفهام ، فظهر الشرح ، والتفسير ، مع ظهور « الغريب » .

أما النسبة بين هذه الحصيلة اللغوية الضخمة و « اللغة الفعلية » فكالنسبة بين خزان الماء العام لمدينة من المدن ، وما يستعمله كل واحد من أبناء هذه المدينة فى بيته من هذا الماء . ويذكر رينان[١] أن أحد اللغويين العرب زعم أن فى لغتنا العربية : أثنى عشر مليونا وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثنتا عشرة لفظة (١٢٣٠٥٤١٢) . ونحن نعلم أن المثقف العربى المعاصر ، لا يكاد معجمه العادى الذى يستعمله فى الكتابة والتأليف والكلام يتجاوز ستة آلاف لفظة . والفرق بين الرقمين رهيب جدا .

ولنترك اللغة العربية قليلا لنأخذ بعض الإحصاء من لغة أخرى ، كالفرنسية مثلا ، وهى لغة حـــديثة ، تأتى فى الصف الأول من لغات الفكر المعاصر القوية الحية المتطورة . يذكر اللغوى الفرنسى « هنرى متران » فى كتابه « الألفاظ الفرنسية »[١] ، أن معجم « لاروس الصغير » ـ طبعة سنة ١٩٦ ـ قد أثبت نحوا من خمسين ألف لفظة فرنسية . وأن « معجم الأكاديمية الفرنسية » ـ طبعة ١٧٨٧ ـ مع التزامه ألا يثبت إلا الألفاظ الأصيلة الصحيحة الفصيحة ، وأن تكون مع ذلك ألفاظا عامة وليست

(١) المرجع السالف الذكر، ص ٣٦٢ حاشية رقم ٢ .

(١) Henri Mitterand : Les Mots Français — Collection "Que Sais - Je" , Paris, 1963 — p, 13 ss.

مصطلحات تقنية خاصة ، قد احتوى ما يقرب من ثلاثين ألف لفظة . أما « معجم لاروس الموسوعى الكبير » ففيه مالا يقل عن مائتى ألف لفظة . والمعجم المسمى « جامع اللغة الفرنسية » الذى أشرف على جمعه وترتيبه اللغوى الفرنسى « ماريو روك » إلى أن توفى سنة ١٩٣٨ ، ومن بعده « كنز اللغة الفرنسية » الذى أشرف عليه المركز الوطنى الفرنسى للبحث العلمى ، ووضع تحت إدارة اللغوى « بول إمب » ، يحتوى على مئات الآلاف من المواد ، وعشرات الملايين من الاستعمالات .

إلى جانب ذلك نجد معجما ألفه اللغوى الفرنسى « جوجنهايم » وسماه « المعجم الأساسى » . وقد التزم فيه إثبات الألفاظ المستفيضة الاستعمال فقط ، فلم يتجاوز عددها ثلاثة آلاف . وقد ظهر من الإحصائيات التى عملت بعد ذلك أن مجموع الناطقين باللغة الفرنسية لايستعملون ، بل لا يفهمون مجتمعين ، إلا تسعة آلاف لفظة فقط ، من المادة اللغوية الفرنسية .

وأكثر من هذا أن بعض العلماء حاول إحصاء تكرر الكلمات فى النصوص الادبية المختلفة ، ومن أشهر ذلك « المعجم الإحصائى للاستعمالات اللغوية » للغوى « هنمون » ، فقد أحصى الألفاظ الدائرة فى أربعمائة ألف نص من نصوص الأدب (روايات ، مسرحيات ، أشعار تغطى القرن الثامن عشر وأواخر التاسع عشر وأوائل العشرين) ، فظهر أنها جميعا تدور على تسعة آلاف لفظه فقط .

واختار اللغوى « فانْ دِرْبيكه » مجموعة من النصوص أكثر

ترابطا وانسجاما (كلها من النثر الأدبى والصحفى والعلمى ، من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ، وأجرى التجربة على مليون ومائة وسبعة وأربعين ألفا وسبعمائة وثمانية وأربعين « مناسبة » فى النصوص المذكورة ، فكانت النتيجة أن الألفاظ المستعملة فيها جميعا هى تسعة عشر ألفا .

كذلك قامت مؤسسة اللغة الفرنسية الابتدائية بتسجيل صوتى لمائة وثلاث وستين محادثة بين مواطنين من مختلف مقاطعات فرنسا وأقاليمها ، وكانت هذه المحادثات مركبة فى مجموعها من ثلاثمائة واثنى عشر ألفا ومائة وخمسة وثلاثين لفظا ، فتبين أنها كلها تقوم على معجم عدد ألفاظه سبعة آلاف وتسعمائة وخمسة وتسعين لفظة .

أما الألفاظ التى ترد فى تعليم المرحلة الأولى (الابتدائية) — وعدد كلماتها ألف وثلاثمائة وثمان وستون — فإنها لا تتجاوز معجما عدد ألفاظه سبعمائة . وهذه طبعا هى أكثر الكلمات شيوعا وجريانا على الألسنة .

فالمعجم إذن بالنسبة للاستعمال ، وعاء تحفظ فيه اللغة . وهو بهذه المثابة مفروض فيه أن ينبه الباحث إلى الثمين والغث من محتوياته ، إلى المفيد والأقل فائدة ، إلى الضرورى ومالا لزوم له ، إلى الثابت الأصيل والمشكوك فيه ، أو المزيف . وهو مطالب بأن يتكيف حسب حاجة المستعين به ، بحيث تكون هناك ألوان شتى من المعاجم . وهو مسئول عن حفظ اللغة ، وعن تطويرها أيضا . فهل عندنا فى عالمنا العربى من المعاجم مايحسن حمل كل هذا ؟

ولكن قبل ذلك لماذا تؤلف المعاجم ؟

قلنا إن المفروض أن المتكلم بلغته القومية لايحتاج فيها إلى شرح لفظ أو بيان معنى كلمة . نعم قد يحتاج إلى تفسير جملة ، أو إيضاح تركيب ، أو جلاء المغزى الخفى فى نص من النصوص . أما اللفظ ، فهذا ملكه لايحتاج إلى من يعرّفه به .

ولعل ذلك هو السبب فى أن المعاجم الأولى التى عرفها الإنسان كانت « معاجم ترجمة » أو « معاجم زوجية » : أى أنها تجمع ألفاظ لغة أخرى أجنبية ، وتعرّف بها واحدة واحدة ، بطريقة وضع اللفظ القومى المعادل فى المعنى أمام اللفظ الأجنبى . وهذا النوع من المعاجم ما يزال من أهم الأنواع وألزمها لمقتضيات الحضارة . فمن منا لم يشعر بالحاجة إلى معجم إنجليزى - عربى ، أو فرنسى - عربى ، أو ألمانى - عربى ، أو روسى - عربى ، أو عبرى - عربى ... الخ ؟

هذا النوع ، أى « المعجم الزوجى » أو « معجم الترجمة » ، نجده معروفا فى العراق القديم ، إذ جاء الساميون من جزيرة العرب فى غضون الألف الثالث قبل الميلاد ، وأسسوا لهم حضارة ودولة ونظما اجتماعية أخذت معظم عناصرها الأساسية من حضارة الشومريين - سكان العراق قبل الساميين - وكان مما أخذوه عنهم الدين والكتابة . فاضطروا الى تعلم اللغة الشومرية ، وترجموا أساطيرها وشرائعها وآدابها إلى لغتهم الآكادية السامية ، ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى عمل مجاميع لغـوية

زوجية ، أى قواميس شومرية ـ أكادية ، لا تشبه ما قـــد نفكر فيه عند سماع كلمة قاموس الآن ، فهى ألواح من الفخار مقسمة إلى أعمدة أولها للشومرى ، والثانى العلامة المسمارية العامة التى تعبر عنه فى اللغتين ، لأن هذه العلامة كانت ذات قيمة دلالية لا صوتية ، بقيت فى الخط المسمارى منذ أن كان هيروغليفيا (أى تصويريا) لا مقطعيا كما هو الشائع فيه بعد ذلك . وفى عمود ثالث يسجل معنى ذلك باللغة السامية الأكادية ثم البابلية أو الأشورية ، وقد وجدت من هذه الألواح نماذج قيمة جدا فى مكتبة الإمبراطور الأشورى « آشور بانيبال » فى « نينوى »[1].

كان السبب الأول والأهم إذن للتفكير فى تأليف المعاجم هو البحث عن معنى لفظ فى لغة أجنبية . بعد ذلك يأتى سبب آخر للتفكير فى تأليف المعاجم ، وهو البحث عن معانى الألفاظ النادرة الاستعمال أو الغريبة فى داخل اللغة نفسها . ذلك أن اللغة كما أسلفنا ، أصبحت تورث من جيل لآخر مع بقية التراث الفكرى . وخلال تلك المسيرة الطويلة كان كثير من الكلمات يختفى من ذاكرة المتحدثين ، لأن المظهر الحضارى الذى تعبر عنه هذه الكلمات قد تضاءل أو اختفى . وفى أثناء اطلاع الأبناء على مخلفات الآباء يجدون ألفاظا من هذا النوع ، لا يفهمونها تماما ، ولذلك دعت الحاجة إلى معجم يشرح هذا « الغريب » . يضاف إلى ذلك ، على ضوء النماذج الاحصائية التى أشرنا إليها ، كون المتحدث لايعى فى ذاكرته

---

(١) وهذه المجموعة محفوظة الان فى المتحف البريطانى بلندن .

إلا الجزء الأقل من الثروة اللغوية القومية العامة ، فليس غريبا أن يصادف عند السماع أو القراءة كلمات مستعملة فى أمته لا يعرف معناه بدقة ووضوح .

كذلك قد يخطر بالفكر معنى لا يجد الإنسان له لفظا فيما وعته ذاكرته من كلمات . فيشعر بالحاجة إلى البحث عن هذا اللفظ فى كنوز لغته التى تراكمت فيها ثروات ضخمة من الألفاظ مع الزمن ، وهكذا تظهر « المعاجم الموضوعية » ، أى المرتبه على حسب الأفكار ، أو الموضوعات ، أو المعانى التى تخطر ببال مستعمل اللغة ، وتحتاج إلى ما يؤديها من كلمات .

وحسب ما تقدم نجد أنفسنا أمام ثلاثة أنواع من المعاجم :

١ ـ معاجم الترجمة ، أو المعاجم الزوجية أو الثنائية اللغة : التى تحدد لمفاهيم بين ألفاظ اللغة القومية ولغة أجنبية ويلحق بهذا النوع معاجم ظهرت بعد ذلك تعطى المعنى بألفاظ أكثر من لغة واحدة أمام لفظ اللغة القومية نفسها ، وهى المعاجم المتعددة اللغات .

٢ ـ المعاجم اللغوية ، أو الأبجدية : وهى التى تشرح ألفاظ اللغة ، حتى يستعين بها الباحث على معرفة معنى ما يصادفه من الغريب .

٣ ـ المعاجم الموضوعية ، أو التجانسية ، او معاجم المعانى : وهى التى ترتب الثروة اللغوية فى مجموعات من الألفاظ تندرج تحت فكرة واحدة ،

فمثلا يجد الباحث فيها فى مادة «أسرة» جميع الألفاظ الدالة على الأبوين والأقارب بحسب درجاتهم فى القرابة ، سلفاً كانوا أم أندادا أم خلفاً . وإذا احتاج إلى لفظ دقيق يدل على لون يراه مثلا ، فإنه يجد فى مادة « لون » كل ماتضمه اللغة من أسماء الألوان بدرجاتها المختلفة .

ومن المعاجم اللغوية، الأبجدية، تفرعت فروع حديثة فى فن تأليف المعاجم أهمها:

(أ) المعاجم الاشتقاقية أو التأصيلية (ويسميها بعضهم التأثيلية) وهى التى تبحث فى أصول ألفاظ اللغة .

(ب) المعاجم التطورية، أو التاريخية : وهى معاجم تهتم بأصل المعنى، بعكس سابقتها التى تهتم بأصل اللفظ ، وهى تتبع استعمال اللفظ عبر العصور والنصوص، وماطرأ على معناه من تطور ، فتثبت ذلك وتؤرخ له .

(ج) المعاجم الموسوعات ، يسمى المعجم منها أحيانا « معلمة » : وهى سجلات أبجدية لمعارف البشر عامة ، أو فى فرع من الفروع ، يستوفى شرحه من الناحية العلمية .

(د) المعاجم الخاصة ، او التقنية ، أو معاجم المصطلحات ، وهى التى تهتم بحصر مصطلحات علم معين أو فن قائم بذاته وتشرح مدلول كل مصطلح حسب استعمال أهله والمختصين به .

والآن وقد قدمنا جدولا بأهم أنواع المعاجم نعود محاولين توضيح كل نوع .

المعاجم الزوجية او المتعددة اللغات :

ذكرنا أن الأصل فى هذه المعاجم - وهى أقدم الأنواع - هو إعطاء أداة صالحة للمترجم ، يجد فيها فى مقابل اللفظ الذى لا يفهمه فى لغة أجنبية ما يساويه ويعادله فى لغته القومية . فهذا المعجم إذن مفروض فيه ألا يشرح اللفظة الأجنبية بتعريف أو تفسير ، وإنما يعطى الكلمة المعادلة لها تماما . لكن لكل حضارة خصائص

مميزة ، لها ألفاظ لا مثيل لها فى كثير من اللغات الأخرى ، وهنا يتعين على مؤلف المعجم التصريح بأن هذا اللفظ أو ذاك من خصوصيات تلك اللغة بعينها، ويشرحه بجملة أو فقرة تبرز مدلوله بوضوح، مستعينا بما يراه ضروريا من أمثلة وشواهد. فعندنا فى اللغة العربية مثلا كلمة معناها التقدمة التى يجب على الرجل إعطاؤها للمرأة عند الزواج ، تأكيداً لجدية العقد المبرم بينهما ، إذ لو كان مجانيا لاقبل عليه كل ماجن أو مستهتر . هذه الكلمة هى « المهر » . وهو ليس «ثمنا للمرأة » ، ولا «ضريبة على الزواج» ، وقد وضع له بعض الأوربيين مقابلا باللغة اللاتينية ترجمته الحرفية « ثمن البكارة » [1] . وهو معادل خاطىء ، لا يتفق والعرف العربى ولا تقره الشريعة الإسلامية ، لأن « المهر » يدفع عن زواج البكر والثيب جميعا ، وفى الحالة الأخرى لا يمكن أن يكون ثمنا للبكارة . وهناك من ترجموه بأنه « ثمن المرأة » كما قلنا ، وهم قد أخطأوا أيضا ، لأن المرأة لا ترده عند الطلاق ، وكان الأولى أن يكتب اللفظ العربى كما هو ، وينظر إليه على أنه لفظ دخيل لمعنى خاص غير معروف فى المجتمعات التى تستعمل هذه اللغات الأجنبية ، وهذا ما فعله بعض المدققين من تراجمتهم . ومثل هذه الألفاظ كثير جداً ، وما يزال محتاجا إلى أن يفرد بدراسات تتعاون عليها علوم اللغة والاجتماع .

وتنبغى الإشارة هنا إلى أن حاجة المترجمين قد مست أيضا إلى أنواع عكسية من هذه المعاجم ، أى لا تبدأ بترتيب الألفاظ فى اللغة الأجنبية بإعطاء مقابلها باللغة القومية، بل بالعكس . فكما أن عندنا معاجم إنجليزية ـ عربية مثلا ، نجد كذلك معاجم عربية ـ إنجليزية .

---

(١) Pretium Virginitatis.

وهذه المعاجم التى سميناها معاجم الترجمة ، تزداد الحاجة إليهـــا يوما بعد يوم ، مع اتساع مجال الاتصال بين شعوب البشر ، وضرورة اطلاع كل أمة على علوم الأمم الأخرى وفنونهـــا ، وانتشار التجارة والأعمال المصرفية ، وتعقد العلاقات السياسية الدولية ، مما جعل الدقة المتناهية فى الترجمة أمراً لاغنى عنه ، وأصبح الخلاف على كلمة فى اتفاق أو معاهدة أو إعلان أو ميثاق قد يجر إلى عواقب وخيمة جداً. ونحن نعلم أن هيئة الأمم المتحدة ، فى تنظيمها الدولى، تعتمد على خمس لغات أساسية هى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والصينية، وأن كل مايتخذ فيها من قرارات يصدر بهذه اللغات الخمس، وكل منها يعتبر أصلا ـ لاترجمة ـ عند الخلاف أو التقاضى .

المعاجم اللغوية الابجدية او معاجم الغريب :

وهى معاجم ظهرت منذ العصور القديمة أيضا لتكون خزائن تحيط بمادة اللغة كلها (أو هذا ، على الأقل ، هو مطمح الكثيرين من مؤلفى هـذه المعاجم) . ويذكرون أن الشرق الأقصى ـ وبخاصة الصين ـ أعطى مؤلفات من هذا النوع منها معجم يرجع إلى سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، اسمه «شوو ـ أوان» من تأليف «هو ـ شن » ، ومعجم آخر من سنة ٥٣٠ بعد الميلاد ألفه « كو ـ يى ـ وانج » واسمه «يو ـ بين» [١] .

كذلك وضع اليونان والرومان معاجم من هذا النوع منها معجم هلاديوس السكندرى، فى القرن الرابع الميلادى ، ومعجم يوليوس بولوكس ، وهو مرتب بحسب الموضوعات ، وهذان المعجمان يونانيان [٢] .

وفى عهد الإمبراطور الرومانى أغسطس حوالى ميلاد المسيح ، ظهر معجم

(١) الاسماء الواردة هنا على التوالى :
Shwo - Wan, Hü - Shin, Ku - Ye - Wang, Yu - Pien.

(٢) Helladius, Julius Pollux.

فاليريوس فلاكوس ، وعنوانه «معانى الألفاظ»، كما ألف هزيشيوس السكندرى فى القرن الرابع الميلادى معجما للهجات والتعبيرات وألف أمونيوس السكندرى معجما لمعانى «المشترك»[1].

أما فى لغتنا العربية فقد بدأ اللغويون بحصر مادة اللغة العربية فى مجاميع على شكل رسائل ، تحتوى كل منها على الألفاظ الخاصة بموضوع معين : ككتاب أبى حنيفة الدينورى ، أحمد بن داود بن وتند ، المتوفى حوالى سنة ٢٩٠ هجرية ، فى النبات ، وكتابه فى الأنواء . وكان أستاذه أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤هجرية قد اشتهر فى هذا اللون من التأليف أيضا ، وكتب فى النبات ، والأصوات ، والفروق (التى تتميز بها بعض الكائنات المتشابهة) . كما اشتهر من هذه الطبقة الأصمعى وأبو حاتم السجستانى وابن خالويه وغيرهم .

وظهرت كتب جامعة لمادة اللغة . مرتبة بحسب الموضوعات . منها كتاب الألفاظ لابن السكيت. وهو أقدم ما ألف فى هذا النوع . ومبادىء اللغة للاسكافى المتوفى سنة ٤٢١هجرية. وفقه اللغة وسر العربية لأبى منصور الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هجرية . ثم المعجم الموضوعى الجامع المسمى بالمخصص من تأليف أبى الحسن على بن اسماعيل الأندلسى ، المشهور بابن سيدة ، المتوفى سنة ٤٥٨ هجرية، وهو يقع فى سبعة عشر جزءا . أما كتاب الألفاظ الكتابية للهمذانى المتوفى سنة ٣٢٧هجرية ، فإنه يصرف همه إلى انتقاء تعبيرات، بعضها جمل كاملة، مرتبة بحسب الموضوعات ، لإمداد الكتاب ، ولاسيما كتاب الديوان، بأساليب فصيحة ، يضعونها كما هى فى كتاباتهم .

أما المعجمات الأبجدية فإن أول من فكر فى التأليف فيها هو الخليل

---

(1) Valerius Flaccus, Hesyshius, Ammonius,
وهذه الأسماء ذكرها، بهذا النطق والهجاء، أحمد عبد الغفور عطار فى كتابه : مقدمة الصحاح للجوهرى ، طبع دار الكتاب العربى بمصر (محمد حلمى المنياوى) — ١٩٥٦ ص ٤١-٤٢.

ابن احمد الفراهيدى البصرى (١٠٠ - ١٧٤ هجرية) ، وقد وضع معجم « العين » ، وتوخى فيه ترتيب الألفاظ بحسب الحرف الأول منها ، مبتدئا بحروف الحلق ، وجاريا فى ترتيبه على مسار جهاز النطق، إلى الشفتين . وسمى معجمه « كتاب العين » لأنه يدأ بهذا الحرف ، وترتيب حروفه الأبجدية هو « ع ، ح ، ه ، خ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ا ، ى . » هذا ماذكره الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى [1] وقد سقط فى هذا الترتيب الغين ، والثاء ، والذال ، والظاء ! وظهرت أقدم نسخ هذا الكتاب حوالى سنة ٢٥٠ هجرية ، أى بعد وفاة الخليل بأكثر من خمس وسبعين سنة ، مما أثار الشك فى نسبته إليه ، لاسيما أن ما وقفنا عليه من هذا الكتاب يحتوى على صنوف من السهو والإهمال تناقض ما عرفناه عن الخليل من دقة وتعلق بمنهج محكم لا يسهل تطرق الخطأ اليه .

ويرى الباحثون الأوربيون أن كتاب العين يتبع نمط الهند فى المعاجم السنسكريتية من حيث الترتيب على مخارج الحروف ابتداء من أقصى الحلق إلى الشفتين . ويبدو لنا أن الخليل قد فكر فى متن اللغة تفكيرا حسابيا رياضيا ، فتصور أن حروف المعجم يمكن تتبعها فيما يجوز أن يتركب منها من الكلمات ، ابتداء من الكلمة ذات الحرف الواحد إلى الألفاظ المزيدة المركبة من ثمانية أحرف . ثم يتتبع ماعليه شاهد من كلام العرب من هذه التركيبات فيثبته على أنه « مستعمل » ، ومالم يجد عليه شاهدا يثبته على أنه « مهمل » . وهو منهج دقيق جدا ولكنه يستوعب من الجهد والوقت مايتجاوز الشخص الواحد إلى العشرات من الباحثين . ولذا

(١) فقه اللغة : ط . النهضة بالقاهرة ، الطبعة السادسة ، ص ٢٧٤ .

فمن المحتمل أن يكون الخليل قد مات دون أن ينجز هذا العمل الضخم، ثم جاء بعض تلاميذه من بعده فاختصروا الطريق وكتبوا شيئا مستمدا من فكرة الخليل دون أن يكون تنفيذا لتخطيطه بدقة . وهذه الفكرة فى تأليف الحرف مع الحرف، هى التى جعلت كتاب العين لايقف عند الاشتقاق العام المبنى على القواعد المقررة فى علم الصرف ، بل كان كثيرا مايخوض فى الاشتقاق الكبير ، « فيتكلم مثلا عن المواد : ضام ، وضمى ، وضم ، وأمض فى موضع واحد »[١] . وعلى ذلك يكون الخليل هو أول من فتح عيون تلاميذه على ظاهرة الاشتقاق الكبير قبل أن يفطن إليها أبو على الفارسى وابن جنى .

وإذا كان كتاب العين يمثل « ماقبل تاريخ المعجم العربى » ، فإن التاريخ الحقيقى لصناعة المعاجم يفتتح بمعجم « الجمهرة » . أو « جمهرة الكلام » ، لأبى بكر محمد بن الحسن بن دريد ، (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) . وقد عول على كتاب العين وماوصله من المجاميع اللغوية الأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ، وماحفظه هو من الأشعار والأراجيز ، وماسمعه مشافهة من الأعراب . ورتب مواده ترتيبا أبجديا ولكنه حاول أيضا أن يسهل منهج الخليل ، فكان يبدأ بالثنائى من الألفاظ : أب ، أت ، أث ... - بت ، بث ، بج ... إلى آخر الحروف . ثم ينتقل من الثنائى إلى الثلاثى ثم الرباعى ومايلحق به ، ثم الخماسى والسداسى وملحقاتهما . وجمع النوادر فى باب مفرد . واصطنع طريقة الخليل فى

---

(١) نفس المرجع ص: ٢٧٧ - ٢٧٨

جمع فروع المادة ، فذكر فى كل أصل ثلاثى ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير . [1] والظاهر أن الكتاب كان شديد الشبه بكتاب العين لدرجة أن بعض معاصرى ابن دريد قال فى هجائه [2] :

ابنُ دُريد بَقَرَهْ ... وفيه عِىٌّ وشَرَهْ
ويدعى من حمقه ... وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا ... أنه قد غيره

ويقال إن الذى هجاه بهذا الشعر هو نفطويه النحوى البصرى المعاصر له ، إبراهيم بن محمد بن عرفه بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة ، المتوفى سنة ٣٢٣ هـ ، ويقال إن ابن دريد رد عليه الهجاء بقوله [3] :

لو أُنزل النحوُ على نِفطويه ... لكان ذاك الوحى سخطا عليه
وشاعرٍ يُدعى بنصف اسمه ... مستأهلٍ للصفعْ فى أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه ... وصيّر الباقى صُراخا عليه

---

(١) نفس المرجع ، ص : ٢٧٨ .
(٢) بغية الوعاة ، فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ طبع القاهرة ـ السعادة ، سنة ١٣٢٦ هـ ـ ص ٣١ .
(٣) بغية الوعاة ، ص ١٨٨ ـ وفى قوله لو أنزل النحو ...الخ احتمال تحريف من الرواة أو النساخ ، إذ هو يستقيم أكثر لو قلنا : لو أنزل الوحىُ .. الخ وراجع أيضا : نزهة الألبا ، فى طبقات الأدبا (أى النحاة) لابن الأنبارى أبى البركات عبد الرحمن بن محمد : طبع حجر بالقاهرة سنة ١٢٩٤ هـ ـ ص : ٣٢٨ .

وتوالى مؤلفو المعاجم بعد ابن دريد فمنهم :

أبو على القالى ، صاحب الأمالى ، المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، واسمه إسماعيل ابن القاسم بن عيذون بن هارون ، البغدادى . ويسمى معجمه « البارع » ، ذكر الدكتور على عبد الواحد وافى أنه « زاد فيه على ماجاء فى كتاب العين للخليل » وقال السيوطى فى بغية الوعاة إنه لم يتمه .

الأزهرى ، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر ، (٢٨٢ - ٣٧٠هـ) ويسمى معجمه « تهذيب اللغة » ، واشتهر باسم « التهذيب » ، ويقع فى عشرة مجلدات ، وترتيبه يجرى على منهج الخليل فى كتاب العين .

الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) ، ألف معجما اسمه « المحيط باللغة » فى عشرة مجلدات ، كما اختصر معجم ابن دريد باسم « جوهرة الجمهرة » .

الجوهرى ، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى الفارابى (٣٢٣ - ٣٩٣ هـ) ، وقد اشتهر معجمه « تاج اللغة وصحاح العربية » باسم « الصحاح » ، جمع فيه أربعين ألف مادة من لغة العرب سمع كثيرا منها مشافهة من الأعراب فى بطن جزيرتهم . وكلماته مرتبة على حروف المعجم لكن على حسب الحرف الأخير من الكلمة ، وهو على متانة تأليفه لم يسلم من الاستدراك والتصحيح والتغليط ، وكان ممن تعقبه فى ذلك من مؤلفى المعاجم الفيروزابادى صاحب القاموس .

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى (٣٢٩ - ٣٩٥هـ) ، أستاذ الصاحب إسماعيل بن عباد ، وألف معجمين أحدهما يسمى « المجمل»

وهو مرتب بالحروف الأبجدية حسب أوائل الكلمات ، والثانى « مقاييس اللغة » وهو كبير ، ذكروا أنه يقع فى خمسة مجلدات ؛ وقد نشر فى ستة مجلدات .

وألف إبن سيده إلى جانب معجمه الموضوعى « المخصص » الذى سبقت الإشارة إليه معجما أبجديا اسمه « المحكم ، والمحيط الأعظم » أو « المحكم فى لغة العرب ، وجمل من غريب الكتاب والحديث وفنون من النحـــو والأدب » وهو مرتب كترتيب العين للخليل والتهذيب للازهرى . وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن سيده فى كلا المعجمين اللذين ألفهما اهتم إلى جانب اهتمامه بمتن اللغة ، بالصيغ الصرفية المختلفة وما فيها من غرائب وشواذ ونوادر ، وكان يفتح لذلك أبوابا خاصة فى الكتابين .

ومن المعاجم الجديرة بالذكر « أساس البلاغة » للزمخشرى ، جار الله محمود بن عمر ، (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) ، والمعجم مرتب بحسب أوائل الألفاظ ـ مجردة من الزوائد ومردودة لأصولها كالمـــادة ـ على نظام الأبجدية المعروف انا . يقول الاستاذ الدكتور على عبد الواحد :

« وقد نهج الزمخشرى فى شرح الكلمات منهجا خاصا به ، فهو لا يفسر الكلمة بل يشير إلى مواطن استعمالها بذكرها فى عبارات مؤلفة أو مأثورة من فصيح الكلام العربى شعره ونثره ، ويترك للقارىء استخلاص معانيها المختلفة من سياق العبارات التى ترد فيها » .[1]

---

(١) فقه اللغة ص ٢٨١ .

والواقع أن الزمخشرى يصنع هذا إذا كان المعنى الأصلى للكلمة من المعانى الواضحة المألوفة ، أما إذا كانت الكلمة على جانب من الغرابة فى دلالتها فانه يبدأ بتفسيرها ، يقول مثلا فى مادة (ج ب ل) : « جبله الله على الكرم ، خلقه ... الخ » . ويقول مثلا فى مادة (ط ر س) : « كتب فى الطرس ، وفى الطروس ، وهو الصحيفة ... » وفى مادة (غ ض ف) » : عيش أغضف ، ناعم لين ، من الغضف فى الأذن ، وهو الاسترخاء . وتغضفوا عليه « تعطفوا » . وتغضفت الحية « تلوت » . وتقول : « نحن فى عيش أغضف ، لا بؤس ولا شظف » . بينما هو يقول فى مادة (ش ى ن) : « هو فعل شائن ، وهذه شائنة من الشوائن ، ووجهك شين ووجهى زين » فلا يشرح لوضوح الدلالة . أما الذى يمتـــاز به هذا المعجم بحق فهو تتبع الاستعمالات المجازية للالفاظ ، والفصل بينها وبين الدلاله الحقيقية . وهو معجم أدبى لايدعى استقصاء كل ألفاظ اللغة ، وإنما يجمع الفصيح الوارد فى أساليب الأدباء والبلغاء ، وكأنه التزم ماينم عنه عنوانه وهو « أساس البلاغة » .

وألف أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهانى معجما مشهوراً لألفاظ القرآن الكريم خاصة يدعى « المفردات » وقد حاول فيه محاولات طيبة فى سبيل رد بعض الألفاظ المعرَّبة إلى أصولها ، كما توخى الدقة فى الإبانة عن معانى الألفاظ ، مستعملة فى آيات الكتاب العزيز .

ويلحق بهذا النمط من المعاجم « النهاية » فى غريب الحديث والأثر ،

لمجد الدين بن الأثير (٥٤٤ - ٦٠٦ ﻫ) . والكتابان مرتبان على حروف المعجم .

ويجىء بعد هذه الطبقة الصغانى ، رضى الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوى العمرى ، (٥٧٧ ٦٥٠ ﻫ) صاحب المعجم الكبير « العُباب » ، وقد اهتم فيه بأصل معنى كل مادة قبل تفريع دلالاتها ، كما اهتم بالاشتقاق بنوعيه الصرفى القياسى العام والاشتقاق الكبير . وله معجم آخر سماه « تكملة الصحاح » وهو مكمل لمعجم الجوهرى ، وأكبر منه حجما .

ولعل أوسع معاجم العربية وأغزرها مادة وأدقها تحريراً وتعبيراً « لسان العرب » لابن منظور ، جمال الدين محمد بن جلال الدين بن مكرم الانصارى الخزرجى الإفريقى المصرى ، (٦٣٠ -- ٧١١ ﻫ) . وقد أخذ مادة معجمه من تهذيب الازهرى ، ومحكم ابن سيدة ، ونهاية ابن الاثير ، وجمهرة ابن دريد ، وصحاح الجوهرى ، وما ظهر على الصحاح من حواش واستدراكات . ويحتوى لسان العرب على زهاء ثمانين ألف مادة ، وهو عدد لم يجتمع لمعجم عربى آخر . وكلماته مرتبة على حروف المعجم بحسب أواخرها بعد تجريد المواد من الزوائد وردها إلى أصولها . كذلك يمتاز بثروته الفائقة من الشواهد على المعانى المختلفة ، يسوق فى ذلك نصوصا من القرآن والحديث والشعر والأمثال والخطب ، وهو يقع فى عشرين جزءا كبيراً .

وعلى النقيض من « اللسان » ، كان معجم « المصباح المنير » فى غريب

الشرح الكبير ، لأحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ
من أوجز المعاجم ، وكان الفراغ من تأليفه سنة ٧٣٤ ، أى بعد اللسان
بفترة وجيزة . والشرح الكبير الذى يذكر فى العنوان أنه يحيط بغريبه
هو الذى ألفه الإمام الرافعى شرحا لكتاب « الوجيز » فى الفقه الشافعى
للغزالى ، وهو مرتب على حسب أوائل الألفاظ ، ولم يحط إحاطة كافية بمادة
اللغة ، ولكنه على العموم قد أجاد شرح ما أورده من ألفاظ ، لا سيما
ما كان منها من مصطلحات الشريعة الاسلامية .

وقريبا من ذلك الوقت ألف الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر
الرازى سنة ٧٦٠ هـ معجما اختصر فيه الصحاح للجوهرى ، وسماه « مختار
الصحاح » . وكان ترتيبه كترتيب الصحاح ، أى بحسب أواخر الألفاظ ،
ولكن الطبعة التى أصدرتها وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٠٥ م جرت
على الترتيب بحسب أوائلها ، وكان ذلك بفضل الاستاذ محمود خاطر ،
وبمراجعة الشيخ حمزة فتح الله .

ولعل أشهر معجم ينافس لسان العرب هو « القاموس المحيط » لأبى
طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزابادى الشيرازى (٧٢٩-٨١٧ هـ).
وهو مرتب على حسب أواخر الألفاظ مثل الصحاح واللسان ، إلا أنه
فى ترتيب الفصول داخل كل باب وضع حرف الواو بعد حرف
النون مباشرة ووضع بعده الهاء ثم الياء ، وذكر أن ذلك من باب الاحتياط
لإحكام الفصل بين ما أوله واو وما أوله ياء ، وعدم ترك أية فرصة
للخلط بينهما .

والواقع أن مظاهر الدقة كثيرة فى هذا المعجم ، ثم إنه أول من استعمل الرموز المختصرة توخيا للإيجاز ، كما أنه لا يكرر اللفظة عند ذكر كل معنى من معانيها . كذلك امتاز هذا « القاموس » بعنايته بذكر الاعلام من أسماء الناس والمواضع وغيرها . ولما كان هذا من حيث الحجم أقل من ربع لسان العرب ، مع أنه يحتوى على ستين ألف مادة من مواد اللغة ، فقد انتشر واشتهر ، وعول عليه كثير من دراسى اللغة .

والفيروزابادى نفسه يقول إنه قد اختصره من مؤلف أنهاه قبله وكان يقع فى ستين مجلدا واسمه « اللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » .

ولانتشار « القاموس » حظى بعناية العلماء ، فشرحه عدد منهم شروحا أشهرها « تاج العروس فى شرح القاموس » للسيد مرتضى الزبيدى الحسينى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ . كما تعقبه فى سقطاته وهفواته اللغوى اللبنانى أحمد فارس الشدياق ، (١٨٠٤ - ١٨٨٨ م) فى كتاب سماه « الجاسوس على القاموس » . وقد بلغ من شهرة هذا المعجم أن أصبح العرب من بعده يطلقون كلمة « قاموس » على أى معجم آخر . واعتمد عليه اللغوى اللبنانى المعلم بطرس البستانى (١٨١٩ - ١٨٨٣م) فى تأليف معجمه المشهور « محيط المحيط » ، كما اعتمد عليه اللغوى الفرنسى ، اليهودى البولونى الأصل ، كازيمرسكى [1] ، (١٧٨٠ - ١٨٦٥ م) فى تأليف معجمه العربى الفرنسى الكبير ، وفى ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم .

---

(١) M.Kasimirski , Dictionnaire Arabe-Français — 2 Vols.

وتكاد حركة تأليف المعاجم تقف بعد الفيروزابادى ، برغم ماظهر من بعد مثل محيط المحيط للمعلم بطرس البستانى الذى سبقت الإشــارة إليه ، وأقرب الموارد ، فى فصح العربيــة والشوارد للشرتونى ، (١٨٤٩ - ١٩١٢ م) ، والمنجد للاب اليسوعى لويس المعلوف ، (١٨٦٧ - ١٩٤٦ م) ومعجم الطالب للمعلم جرجس همام الشويرى اللبنانى [١] ، والبستان للشيخ عبد الله البستانى (١٨٥٤ - ١٩٣٠ م) وكذلك مختصره المسمى « فاكهة البستان » ، ومختصر المنجد المسمى « منجد الطلاب » من إعداد الدكتور فؤاد أفرام البستانى رئيس الجامعة اللبنانية ببيروت . ثم المعجم الوسيط الذى أصــدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

كل هذه المعاجم ليست إلا محاولة لإظهار القديم فى ثوب جديد ، دون أن تضيف شيئا جوهريا إلى تلك الصناعــة ، وفى ذلك يقول الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى إنها « لاتكاد تمتاز عن المعجمات القديمة إلا فى حسن التنسيق ، ونظام الترتيب ، واستخدام بعض وسائل الإيضاح كرسم ما تدل عليه الكلمات من حيوان أو نبات أو جماد ، وتعرضها أحيانا لبعض المصطلحات الحديثه فى العلوم والفنون والصناعات... وما إلى ذلك » [٢] .

والمعجم الأبجدى يحتاج فى تأليفة إلى ما يلى :

---

(١) طبع هذا المعجم بالمطبعة العثمانية فى بعبدا (لبنان) ١٩٠٧

(٢) فقه اللغة ، ص : ٢٨٩

١ ـ مادة لغوية مأخوذة من النصوص . أما مارواه اللغويون عما لم تقم عليه شواهد واضحة من الكلام المستعمل عند العرب فإنه ـ على حد قول « رينان » ـ ينبغى النظر إليه بعين الريبة ، لأن رواة اللغة من الأعراب ، ومن يجمعونها من العلماء ، قد بالغوا كثيرا فى تضخيم المادة اللغوية : إما تحذلقا ، ورغبة فى الإغراب والإطراف ، وإما للكسب المادى بكل بساطة . وليس معنى ذلك فى رأينا وجوب طرح مالم يقم عليه شاهد من النصوص الأكيدة ، وإنما ينبغى التنبيه إليه وإلى راويته ولو بإشارة اصطلاحية معينة تفيد أنه لاشاهد عليه .

٢ ـ ترتيب أبجدى واضح دقيق ، مع ترتيب الفروع تحت كل مادة بنفس الطريقة والشكل دائما : فالأصول الفعلية تبدأ بالمجرد ثم بمزيدانه بنسق لايختلف ، كلما وجد وزن من أوزان المزيد ذكر فى رتبته الخاصة به من هذا النسق ، ثم المشتقات الاسمية ... الخ ، ولابأس من الانتهاء بذكر بعض وجوه الاستعمال للألفاظ المادة ، كلها أو بعضها ، إن كانت هذه الوجوه جديرة بشرح منفرد ، كما يفعل أكثر المعاجم فى اللغات الحية الحديثة .

٣ ـ ذكر المعنى الرئيسى للمادة أولا ، ثم المعانى الفرعية ، والأقل عموما ، والخاصة ، بعد ذلك . وإذا كان معنى من المعانى قد حدث فى دلالة اللفظة فى تاريخ معين ذكر ذلك صراحة .

٤ ـ إحكام ضبط نطق الألفاظ ، وهجائها ورسمها فى الإملاء ان كانت فى ذلك مشكلة .

٥ - التنبيه على الفصيح ، والمعرب ، والدخيل ، والمولد ، وما كان من الاستعمالات العامية أو السوقية . وفى ذلك تلجأ بعض معاجم اللغة إلى الإشارة برموز معينة : فالفصيح يترك بدون علامة لأنه الأصل ، والمعرب توضع أمامه نجمة صغيرة أو صفر مربع ، والدخيل يمكن تمييزه بصفر مستدير مصمت ، أى أسود ، والمولد بحلقة صغيرة مفرغة ، أى بيضاء ، والعامى السوقى ينص عليه مع بيان وجه الخطأ فى استعماله . وإذا أمكن ذكر اللغة التى جاء منها المعرّب أو الدخيل ، وأصل اللفظ فى هذه اللغة ، كان أوفى ؛ كما أنه لو أمكن ذكر العصر الذى ترجع إليه اللفظة المولدة ، أو المعنى المستحدث لكان ذلك أجود وأدق أيضا .

٦ - عدم الالتجاء إلى التصوير والرسم التوضيحى إلا إذا كان يقينيا ، وإذا كان ضروريا للشرح لا يمكن الاستغناء عنه ، بحيث لا يأتى رسم أو صورة لتزيين الصفحات ، أو لادعاء التطور ومسايرة التقدم العصرى ، وسنتحدث عن ذلك عندما نتناول المعاجم المصورة .

٧ - أن يكون الشرح واضحا ، فلا نجد أمام بعض الألفاظ الغريبة كلمة « معروف » ، أو « نبات فى البادية » ، أو « نبات ترعاه الإبل » ، أو « نوع من الحشرات » ، أو « دويبّة » ... الخ ؛ وأن يكون الشرح مع وضوحه ودقته غير مائل إلى الثرثرة ، بل تكون الألفاظ محدودة معدودة على قدر التعريف .

٨ - عدم شرح لفظتين فى موضعين من المعجم كل منهما بالأخرى ، والاكتفاء بذلك .

٩ ـ إذا كان مؤلف المعجم يريد أن يضع كلمة لمعنى ، وهى غير موجودة فى اللغة ، أو أن يدخل من الألفاظ العامية شيئا لضرورته لمعنى معين ، وجب عليه ألا يكتفى فى ذلك بالرمز الاصطلاحى للدخيل أو المولد ، وإنما ينص على أنه يختار هو اللفظ لتلك الدلالة . ولنفرض مثلا أنى وجدت أن سطح البيت إذا كان محدبا مسنما يمكن أن يسمى باللفظة العامية المصرية (جملون) ، التى يبدو أن المصريين لاحظوا فى فى استعمالها شكل سنام الجمل ، وجمعوها على (جملونات) ، فإنه ينبغى أن أذكر أن ذلك من اختيارى ، وإذا كان لى فيه سند ذكرته أيضا ، كقول شهاب الدين أحمد الخفاجى فى شفاء الغليل :[1] (جملون) ، هو عند عوام مصر سقف محدب ، قال قائلهم :

فى ظهره جملونات لها عُقَدُ

١٠ ـ هناك مصطلحات علمية عالمية (لاتينية فى الغالب) لفصائل النبات والحيوان والمعادن والكواكب والأجرام السماوية ونحوها ، ولا بأس بوضع ذلك فى حاشية بذيل الصفحة ، لزيادة إيضاح كلمة عربية لم تأخذ مكانها بعد فى دنيا العلوم الحديثة ، على أن تراعى الدقة فى وضع هذه المقابلات.

وما دمنا فى نطاق المعجم اللغوى ، فلنوضح ما يتفرع عنه من معاجم

---

(١) شفاء الغليل ، ص ٦٦

لاتهدف إلى شرح معانى الألفاظ فحسب ، بل تضيف إلى ذلك أهدافا أخرى من البحث العلمى ، وأشهر ذلك :

أ ـ المعاجم الاشتقاقية أو التاصيلية :

وهى معاجم ترد الألفاظ إلى أصولها ، وتصعد باللغة إلى منابعها الأولى . ولما كانت لغتنا العربية فى ذاتها « منبعا » فإن المعجم الاشتقاقى ينبغى أن يحقق فيها الأهداف الآتية :

١ ـ ذكر المعانى الحسية الحقيقية القديمة للمواد ، وشرح العلاقات الفكرية التى على ضوئها تنوعت المعانى الأحدث ظهورا ، واشعبت عن المعنى الأصلى .

٢ ـ ذكر اللفظ نفسه إذا كان موجودا فى غير اللغة العربية من اللغات السامية الأخرى ، ومعناه فى هذه اللغات إذا كان يختلف قليلا أو كثيرا عنه فى العربية ، وكذلك اختلاف نطقه فى هذه اللغة بالنسبة للنطق العربى ، والاشارة إلى بعض النصوص المشهورة التى جاء فيها فى اللغة العربية واللغات السامية الأخرى . وإذا كانت هناك أدلة علمية على ارتباط بمواد أخرى على طريقة الاشتقاق الكبير أو غيره وجب ذكرها ، كالربط بين مواد « النور » و « النار » و « النهار » . أو بين مواد « دار » و « دير » و « دهر » ... الخ .

٣ ـ رد المعرب والدخيل إلى أصوله فى لغاته الأجنبية مع ذكر المعنى الأصلى للألفاظ فى هذه اللغات .

٤ ـ ذكر المشتقات التى فرعها العرب من بعض المواد المعربة :
فمثلا كلمة « طلسم » يونانية الأصل هى (تالسما) ، ومعناها الكتابة السرية المستعملة فى التعاويذ والتمائم والرقى وأعمال السحر المختلفة . وأصلها اليونانى معناه : طقس دينى سرى يقوم به الكهنة وحدهم ، ثم صارت فى العربية واللغات الأوروبية الحديثة بمعنى السر ، واللغز . واشتق العرب منها الجمع (طلاسم) ، وشىء (مطلسم) أى عليه حرز سحرى ، وكل هذا لا يوجد فى اليونانية طبعا .

٥ ـ ذكر بعض التخريجات الطريفة ، منسوبة إلى من ذكروها إذا كانت تستحق الإثبات .

فمثلا كلمة (مجون) بمعنى الخلاعة والاستهتار : ذكر الشهاب الخفاجى فى شفاء الغليل [1] : قال ابن هلال فى كتاب الفروق ، (المجون) صلابة الوجه ، وقلة الحياء ، من قولك مجن الشىء يمجن مجونا ، إذا صلب وغلظ ، ومنه سميت الخشبة التى يدق عليها القصار (ميجنة) ، وأصلها البقعة تكون غليظة فى الوادى ، وناقة وجناء ، صلبة شديدة ، وقيل غليظة الوجنات . والمجون كلمة مولدة لا تعرفها العرب ، وإنما تعرف أصلها الذى ذكرناه . وكأن الشهاب الخفاجى يربط بين المادتين (مجن) و (وجن) ، إذ عنده غلظ الوجنة ، وصلابة الوجه عند الماجن مرتبطان فى المعنى . ويقول الشيخ يوسف المغربى فى « دفع الإصر عن كلام أهل مصر » : « يقولون فلان يتماجن ، أو عنده مجون ،

(١) شفاء الغليل، ص ١٨٧ .

وهو صحيح ، قال : مجن مجونا صلب وغلظ ، ومنه (الماجن) لمن لا يبالى قولا أو فعلا ، كأنه صلب الوجه . والمجان كشدّاد ما كان بلا بدل ، وماء مجّان الكثير الواسع . »[1]

ب ـ المعاجم التطورية او التاريخية :

نحن نعلم أن اللغات تعيش حياتها كالكائنات الحية ، تتغير وتتطور وتنمو مع نمو الفكر وتقدم الزمن . وفى أثناء ذلك تغير كثيرا من بضاعتها ، فتتخفف مما لم تعد الحاجة تدعو إليه وتضيف ما صار ضروريا ، وتحور من بعض الألفاظ فى النطق ، أو الإملاء ، أو المعنى ، أو فحوى المعنى ، أو الاستعمال ، أو الحكم النحوى ، أو بعض الصيغ المشتقة . وكل ذلك يحتاج إلى متابعة ، ويحتاج إلى معجم يساير كل لفظ من لدن مولده ، فى استعمالاته الملازمة له ، وفى استعمالاته المتطورة ، ويلازمه إلى يوم تأليف هذا المعجم ، أو إلى يوم موت ذاك اللفظ .

كيف تطورت لفظة (الجريدة) منذ الجاهلية إلى اليوم من حيث المعنى ، وما علاقة الجريدة اليومية فى عصرنا هذا بالجريدة الجاهلية ، وهى قضبان النخل إذا جردت من الخُوص ؛ وكيف تمت المسيرة التطورية بين المعنيين ؟

كيف تطورت كلمة (الأستاذ) منذ أن كانت فى لغة الفرس قبل الإسلام إلى اليوم ؟

---

(١) دفع الاصر ، عن كلام أهل مصر ـ تأليف الشيخ يوسف المغربى ، حققه وقدم له : الدكتور عبد السلام أحمد عواد ـ مسكو ١٩٦٨ ص ١١٨ ب

وكيف تطورت (الأسطوانة) لفظا ومعنى واستعمالا منذ اليونان القدماء إلى أن دخلت لغة العرب ، وإلى أن دلت على الأسطوانة التى تسجل عليها الأغانى وغيرها وندبرها على (الجراموفون) ؟ (وأنا أفضل هذه الكلمة على « الحاكى » وما إليه)

كيف استعمل امرؤ القيس كلمة (النفس) وكيف استعملها المتنبي أو المعرى أو ابن سينا ؟

متى ماتت ألفاظ مثل الخندريس والعنتريس والقفندر والدوفس والإران والأبان والحيقطان ... ؟

ومن أين جاءت كلمة (المومس) بمعنى تاجرة الهوى أو البغى ، وكيف ماتت ، ومتى عادت فبعثت من جديد ، وماذا حدث من تطور فى معانيها ، وما علاقة هذا التطور بالتطور الاجتماعى ؟ [1] وغير ذلك من تتبع التغيير الذى يطرأ على مفردات اللغة ومعانيها عبر الزمان والمكان . كل ذلك من اختصاص المعاجم التطورية أو التاريخية .

---

(١) هذه الكلمة جاءت من اليونانية « ميمُس » بمعنى الراقصة المعبرة برقصها دون غناء أو تمثيل أو كلام ، وقد أخذها الآراميون أولا بالنطق « مومس » ، ثم دخلت إلى العربية قديما بمعنى « محترفة الدعارة الوثنيه الدينية » بجوار المعبد ، وكانت المومس فى الجاهلية تختار لها بنات يساعدنها فى الرقص والخدمة الشهوانية الوثنية المقدسة تسمى الواحدة منهن « الخريع » ، وكانت أكثر الرقصات انتشارا بين المومسات ما يمثل بالحركات غرام إساف ونائلة وما كان من أمرهما . راجع فى ذلك كتابنا بالفرنسية عن « الدين عند الساميين القدماء » - باريس ١٩٥٧ .

ج — المعاجم الوسوعية ، دوائر المعارف :

هى معاجم للعلم والفكر ، تمد الإنسان لا بالمعنى اللغوى للألفاظ فحسب ، بل بخلاصة دقيقة عما يرتبط باللفظ المذكور من بحوث ودراسات علمية .

فى كلمة « لغة » مثلا يمكننى أن أعطى مقالا مستفيضا عن آخر ماوصلت إليه البحوث فى علم اللغة وفقه اللغة والعلوم اللغوية من نتائج ، وأن أذكر النظريات والمذاهب المختلفة التى تدور حول هذا الموضوع ، وأن أثبت أهم المراجع ، مع نبذة عن حياة أشهر العلماء الذين وطدوا دعائم البحث اللغوى .

وفى كلمة « نحو » ، يمكننى أن ألخص مراحل تسجيل قواعد اللغة فى العالم ، ثم حياة هذا العلم عند العرب ، مع ذكر مذاهب النحويين ومدارسهم وأشهر رجالهم ومؤلفاتهم ... الخ .

وفى كلمة « معدن » ، أستطيع أن أذكر أسماء الفلزات والسبائك المختلفة ، وما يمكن أن يهم الباحثين من كيمياء المعادن ، وتاريخ التعدين ، وأثر استعمال كل معدن فى العلم والصناعة والاقتصاد ونحو ذلك .

والمعاجم هى الموسوعية فى نفس الوقت مرجع فى أسماء الأعلام والتعريف بها ، سواء فى ذلك الشعوب أو الأفراد أو البلدان أو الوقائع الحربية ... الخ .

ودائرة المعارف هى السجل الملخص المركّز لما وقفت عليه الأمة من آثار العلم والحضارة فى الجيل الذى كتبت فيه دائرة المعارف هذه . ولذلك فإن دوائر المعارف تحمل الطابع الفكرى المميز لكل أمة من الأمم ، فإن كانت الأمة مبرزة فى العلوم الطبيعية والصناعات كانت دائرة معارفها مرجعا ومحل ثقة فى ذلك ، وكذا إذا كانت الأمة ذات قدم راسخ فى العمارة أو الموسيقى أو البحرية أو الآداب أو التاريخ ... الخ .

ومن دوائر المعارف نوع متخصص ، فهو يسجل ، على نحو دقيق متسع ، أهم المعارف فى فرع بذاته من الدراسات والبحوث ، كدائرة المعارف الاسلامية ، ودائرة معارف الدين والاخلاق ، ودوائر المعارف الطبية ونحوها .

د — المعاجم الخاصة او التقنية :

وهى المعاجم التى تعالج شريحة بعينها من النشاط الفكرى علميا كان أم أدبيا أم فلسفيا أم غيرها . وهذه المعاجم ، بعكس دوائر المعارف ، تخاطب المتخصصين ، ولذلك فهى فى حل من استعمال المصطلحات المغلقة الدائرة بين أرباب المهنة فقط . ويدخل فى هذا النوع معاجم تخصصت فى فترة معينة ، أو نص معين من نصوص اللغة مثل : مفردات القرآن للراغب الاصفهانى ، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، اللذين سبق لنا ذكرهما فى المعاجم اللغوية الأبجدية ، نظراً للأهمية الكبرى والدائمة التى لألفاظ القرآن وكلمات النبى فى حياة اللغة العربية .

ومن هذا النوع من المعاجم « التذكرة » لداود الأنطاكى الضرير ، وهى - فى جزئها الأهم والأكبر - معجم للعقاقير والأعشاب الطبية ، يليه معجم للأمراض وطرق معالجتها . ومن هذه المعاجم « حياة الحيوان » للدميرى ، الذى يجمع أسماء الحيوان والحشرات والهوام والزواحف والطيور والأسماك ، معرفا بها وبخصائص كل منها على طريقة عصره ، حتى إنه يعنى بتفسير رؤيتها فى المنام . ومن هذا النوع فى اللغات الأوروبية معاجم لاتحصى لجميع أنواع النشاط البشرى وهى تتجدد من آن لآخر مع رقى الفكر وتقدمه .

وقد كنا أشرنا إلى نوعين من المعاجم لايتعلقان بالترتيب الأبجدى وهما على أعلى مكان من الأهمية فى معاجم اللغة :

ا - المعاجم الموضوعية ، أو التجانسية :

ويسمونها أحيانا معاجم المتوارد ، أو معاجم تداعى المعانى . وهى الفصيلة من المعاجم التى يلجأ إليها الباحث ، لاعندما يعسر عليه المعنى ، ولكن عندما يستعصى عليه لفظ يوافق معنى يدور فى خاطره . وعندنا منها كما ذكرنا المخصص لابن سيده الأندلسى الضرير ، وهو يرتب جميع ألفاظ اللغة تقريبا لابحسب لفظها ولكن بحسب معناها ، فالترتيب هنا ليس أبجديا ولكن موضوعى ، ولذا يتعين على الباحث عن لفظة فيه أن يرتاد الفهرست الموضوعى العام للكتاب كله فى أغلب الأحيان (وهو سبعة عشر جزءا) فإذا وقع على الباب الذى يظن أن ضالته المنشودة

موجودة فيه ، أخذ يقرأ مفردات الباب من أولها إلى أن يعثر على الكلمة التى تعوزه ، وقد لا يعثر .

لذلك فإن الذين طرقوا هذا اللون من المعاجم فى اللغات الأوربية الحية فى العصر الحديث ، اخترعوا نظاما أكثر إحكاما ، وأسرع فى إمداد الباحث بما يريد . وفى هذا النظام تقسم الصفحة إلى قسمين ، أحدهما فى أعلاها ترتب فيه الألفاظ أبجديا ، وبجانب كل لفظة إحالتها إلى المادة الموضوعية التى وردت فيها . فإذا كانت اللفظة رأس موضوع فى نفسها طُبِعت بحرف أشد سوادا ، أو مُيزت بإشارة جانبية ، ومعنى ذلك أن موضوعها مستقصى فى القسم الأسفل من نفس الصفحة . وفى النصف الأسفل توضع رؤوس الموضوعات فى وسط السطر ، وترتب تحتها المفردات المتصلة بالموضوع واحدة واحدة .

فمثلا إذا رأيتُ نوعا من الحجارة لا أعرف اسمه ، ومع ذلك فأنا أراه وأعرف أوصافه ، لجأت إلى مادة « حجر » فى المعجم التجانسى فى حرف الحاء . وقد أجِدُه ذكره فى أعلا الصفحة ثم وضع عليه علامة تدل على أنه مذكور هو ومايجانسه فى أسفلها . وأحيانا يحيلنى إلى مادة أخرى يكتبها بجانب لفظة « حجر » ، ولتكن مادة « صخر » مثلا ، فإذا بحثت فى حرف الصاد وجدت ما أريده يقينا . ومن رواد هذا المنهج بين الأوروبيين اللغوى الفرنسى « بواسيير » الذى نشر فى القرن الماضى معجمه التجانسى الكبير لألفاظ اللغة الفرنسية ، وقد أصبح هذا المعجم دستورا يسير عليه من جاء بعده من المؤلفين فى هذا

النوع من المعاجم (١) . (بواسيير ١٨٠٦ - ١٨٨٥) .

ب — المعجم المصور :

استعمال الصور فى توضيح بعض مواد المعجم حديث فى هـذه الصناعة ، وقد لجأ إليه فى فرنسا فى القرن الماضى « فوربيير » مثلا (٢) ، ولكنه التزم خطة علمية جيدة ، وهى أنه اقتصر من الرسم على توضيح الخصائص المميزة علميا وتشريحيا لفصائل النبات والحيوان ، وأشكال الصخور وطبقات الأرض ، وتفاصيل بعض الآلات والمخترعات الحديثة ونحو ذلك . ثم بدأت بعض دور نشر المعاجم فى أوروبا تتوسع فى التصوير ، لأن القائمين عليها أحسوا أنه يكسب المعجم فى عين الباحث فيه ثقة أكبر ، ويترك فى نفسه أثرا مبهما هو أن هذا المعجم عصرى ، ومساير لآخر مراحل التطور الفكرى ، بدليل أنه يعطى صورا للأشياء الحديثة الممعنة فى الجدة . ويترتب على ذلك كله سهولة انتشار المعجم ، وكثرة البيع منه ، واتساع دائرة تسويقه . وظل الأمر كذلك فى دار « لاروس » بفرنسا ، ومعجم « تشامبرز القـرن العشرين » فى إنجلترا ، ومعجم « ملتسى » فى إيطاليا وغيرهم - حتى المنجد للأب اليسوعى لويس

---

(1) P. Boissière, Dictionnaire Analogique de la Langue Française, Paris,

(2) B, — Dupiney de Vorepierre, Dictionnaire Français — Paris 1868 .

المعلوف فى لبنان ، والمعجم العبرى الحديث لابن شوشان فى تل أبيب ، والمعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

والواقع أن دخول الصورة فى شرح دلالة الألفاظ له أخطار كثيرة ، من أهمها أن الرسام يندر أن يكون لغويا فى نفس الوقت ، كما أن اللغوى ليس من الدقة العلمية ، والخبرة والدراية فيما يتصل بالعلوم الرياضية والميكانيكية ، وفنون الصناعة ، وعلم الأحياء وغيرها ، بحيث يستطيع بدون خطأ أن يقول إن الصورة المرسومة هى لهذا المسمى دون غيره . لذلك كثرت الأخطاء فى المعاجم المصورة ، أى أضيفت أخطاء الصورة إلى أخطاء التأليف والتعريف ، مما جعل استعمال الصورة فى المعجم أمرا يحتاج إلى طول روية ؛ فإذا تبين أن ذلك ممكن ، وأنه ضرورى ، وجب أن تحدد المواضع التى يؤتى فيها بالصورة طبقا لخطة توضع فى المنهاج التنظيمى لتأليف المعجم ، وتكون لهذه الخطة نفس الأهمية التى للخطة المنظمة لضبط الألفاظ بالحركات أو ترتيب الصيغ المشتقة فى المعجم مثلا ، بحيث لاتأتى الصور دون ضابط إلا نزوات المؤلفين أو الناشرين ، أو أهداف التسويق والتوزيع والربح ؛ دون احتفال بالمقتضيات العلمية .

واستعمال الصورة الموضحة فى المعجم يختلف عما أصبح يسمى الآن بالمعجم المصور الذى يرجع الفضل فى إبتكاره إلى اللغوى الألمانى المعاصر « دردن » .

نظر هذا العالم فى مفردات اللغة ، فوجد الغريب منها يكثر فى

الحسيات ، لا المجردات . إذ أن المجردات تكاد تكون مفهومة على نحو ما من الناس ، فهم يعرفون ما هو الحب ، والدين ، والخير ، والشر ، والأدب ، والعدل ، والظلم ، والموت ، والشرف ، والكرامة ، والخيانة ونحوها . قد يختلفون فى نظرتهم الفلسفية إليهـــا ولكنهم يتفقون على ما تريد هذه الألفاظ أن تدل عليه . أما الحسيات فإنهم يجهلون معظمها . ماهو الزاغ ؟ ماهـــو العبهر ؟ والأطم ، والبطم ؟ وما الإستار ؟ ... الخ كذلك لاحظ « دودن » أن الألفاظ التى تدل على محسوس تشكّل الجانب الأكبر من اللغة ، وقادته هذه الملاحظة إلى أن يتصور معجما على هيئة مجموعة لوحات مصورة « موضوعية » . فالبيت له لوحة ، والسيارة ، وجسم الإنسان ، والنبات والشجر ، والسفن . وأثاث المنازل ... وهكذا ، وعلى الأجزاء الدقيقة المختلفة فى كل رسم بكل لوحة توضع أرقام تعين كل التفاصيل التى لها لفظ فى اللغة ، وفى الصفحة المقابلة توضع الألفاظ المذكورة بإزاء الأرقام المميزة لها . وفى القسم الأخير من المعجم ترتب جميع الألفاظ الواردة فيه أبجديا بدون شرح أو تفسير ، وأمـــام كل منها رقم اللوحة التى توجد فيها ورقمهـــا فى الرسم . وبالرجوع إلى هذا المفتاح يمكن رؤية دلالة الكلمة بالصورة نفسها ، وهكذا يصبح هذا المعجم لغويا أبجديا وموضوعيا تجانسيا فى آن واحد .

وقد أتم دودن مشروعه ونشر « المعجم الألمانى المصور الكبير » لأول مرة سنة ١٩٣٨ . ومنذ ذلك الحين أثبتت طريقته هذه فائدة كبيرة جدا ، فالناظر فى معجمه يعرف مدلول اللفظ الذى يريده بلمحة

من بصره على الصورة ، دون أن يحتاج إلى قراءات طويلة وشواهد عسيرة قد يظل المعنى بعدها غامضا . وهو أيضا يستطيع أن يجد مايشاء من الألفاظ ، إذا كان يبحث عن ألفاظ لايعرفها لمعان خاصة بموضوع معين يشتغل به ، بمجرد فتح المعجم على اللوحة المصورة لذلك الموضوع ، ورؤية أجزائها وتفاصيلها . وقد بلغ من رواج هذا المعجم أنه ذاع منهجه خارج ألمانيا فظهرت معاجم على نفس النسق للغات الإسبانية والإيطالية والإنجليزيه والفرنسية والعبرية وغيرها .

وبعد ، فلسنا بحاجة إلى التنبيه إلى ما نعانيه من نقص فى المعاجم ، فنحن فى تلك الناحية نكاد نعيش فى العصور الوسطى لا نخرج منها ، فمنذ « القاموس المحيط » للفيروزابادى و « لسان العرب » لابن منظور ونحن كما أشرنا وأشار إليه غيرنا ، نكرر ما جاء فيهما مرتبا ترتيبا آخر ، أو مختصرا ، أو مطولا (تاج العروس فى شرح القاموس للزبيدى مثلا) أو محلى بالصور ، أو مزيدا فيه النزر القليل من المولد ، ولكن الجوهر واحد ، وهو أن صناعة المعاجم عندنا فى أزمة ، وهى بعيدة كل البعد عن مسايرة التقدم الفكرى والحضارى فى العالم العربى الحديث ، وفى العالم الكبير الذى يعيش المدنية المذهلة التى انبثق عنها هذا النصف الأخير من القرن العشرين .

لقد أصبح واضحا أن اللغات السامية انقرضت ولم يبق منها ، وجها لوجه ، إلا العرب بلغتهم واليهود بلغتهم ، وأن هذه الأخيرة كانت قد ماتت موتا نهائيا ولقرون طويله ، بحيث أصبحت العربية وحدها هى

الوريث لكل الأمم السامية ، وهى التى استوعبت هذه الأمم وهضمتها وأدمجتها فى الأمة العربية . ولكن مع الصهيونية المغيرة على فلسطين ، وعلى الكيان العربى كله ، أصبحت اللغة جزءا لا يتجزأ من معركة المصـــير القائمة . واليهود من جانبهم أحسوا بهذا فبذلوا الجهد الكبير المضنى فى إحياء لغتهم من الممات ، وعلى مدى قرن واحد من الزمان استطاعوا أن يخرجوها من القبر إلى الجامعة والصحيفة اليومية والاذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما والكتاب العلمى والأدبى ... إلى جائزة نوبل . ولم يكن هذا سحراً أو معجزة ، بل ثمرة درس منظم توّجه لغويوهم من أمثال إليعازار بن يهودا ، ويهودا جرازوفسكى (جور) ، وطورتشينر (طور سيناى) والقلعى ، والمالح ، وابن شوشان ، بمعاجم معاصرة متطورة أدت دورها الفعال فى تدعيم الحركة الصهيونية على أساس من اللغة والفكر ما زلنا نعانى من جرائه الكثير وهم فى معاجمهم لم يعيدوا ما جاء فى المعاجم القديمة فى ثوب قشيب كما فعلنا ، ولكنهم أعادوا النظر فى كل شىء ، وحاولوا أن يكون المعجم الحديث للغتهم مستودعا للالفاظ التى تليق بالفكر العالمى الحديث .

ولعل عذر اللغويين العرب هو أنهم فى نهضتهم اللغوية لم يبدأوا من لغة ميتة كما بدأ اليهود ، فالعربية ظلت حية حتى فى عصور الانحطاط ، وكان متاعها الذى تراكم معها عبر القرون ثقيلا بحق ، ارتبك فيه كثير من لغويينا ومجامعنا اللغوية ، على حين كان اليهودى يبدأ من الصفر أو يكاد ، فكان أقل ارتباكا ، وكانت حريته فى الحركة أوفر وأوسع ، حتى إن بن

يهوداً اعتبر ألفاظ اللغة العربية واللغات الآرامية والسريانية والكلدانية ميراثاً يأخذ منه ما يشاء لإغناء العبرية الحديثة ، وهـــذا واضح فى معجمه وفى منهج اللغويين اليهود المعاصرين الذين اقتفوا أثره .
ولعل من الطريف أن نذكر مميزات معينة ذكرها أحـــد مؤلفى المعاجم العبرية المعاصرين ، فى مقدمة معجم صغير ألفه لتلاميذ المدارس . أما المؤلف فهو « باروخ كروبنيك » وأما كتابه فاسمه « معجم عبرى حديث » صدرت طبعته الأولى فى تل أبيب سنة ١٩٣٦ .

يقول : يختلف هذا المعجم عن المعاجم الأخرى فى سبعة أشياء :

أولها ـ أنه قد دخلت فيه ألفاظ كثيرة جداً مستحدثة ، أو معان كثيرة مولدة لألفاظ قديمة ، حسب استعمال اللغة الحية فى الأدب والصحافة والحديث . إذ أن السنوات الأخيرة قد شهدت تجديداً شاملا فى الالفاظ والمعانى ، سواء فى الكم أو الكيف ، يفوق ما كان غابر السنين .

ثانيها ـ أنه أضيفت إليه ألفاظ قديمة كثيرة لم ترد فى المعاجم السابقة له ، لأن تلك المعاجم اكتفت فى الأغلب الأعم باعطاء الاصول والجذور ولم تعط من المشتقات إلا القدر القليل ... كما أدخلت فيه ألفاظ تلمودية (آرامية) شائعة أصبحت لشيوعها من تراث اللغة العبرية ، ومع ذلك رفضتها جميع المعاجم حتى الآن .

ثالثها - العناية بتمييز الأفعال المعتلة ، وأصولها قبل أن يطرأ عليها إعلال ، فى مواضعها حتى يسهل العثور عليها .

رابعها - وجهت عناية خاصة إلى التعبيرات التى كرسها الاستعمال ، وكثر ورودها على ألسنة المتكلمين وأقلام الكتاب .

خامسها - أعطيت المقابلات الأوروبية لا الأسماء الاصطلاحية فى عالم الحيوان والنبات فحسب ، بل كلما كان شرح اللفظ باللغة العبرية وحدها لايؤدى إلى الوضوح التام .

سادسها - وحتى يتسع المكان فى هذا المعجم للزيادات والإضافات السالفة ، حذفت منه عددا كبيرا من كلمات يمكن تسميتها « الألفاظ المعجمية » ، لأنها تنتقل من معجم إلى معجم دون أن تخرج إلى الحياة اللغوية الحقيقية ، بل تظل مقبورة فى بطون المعاجم . كذلك حذفت الألفاظ التى أسميها « المواليد الميتة » ، وهى استعمالات تحذلق بها بعض الكتاب ولكنها لم يكتب لها النجاح ولا الانتشار . وحذفت الألفاظ الغريبة التى يحوم الشك حول دلالتهـــا ، وتعيش فى المعاجم مقترنة بعلامة استفهام دائمة . وأبعدت من هـــذا المعجم كلمات آرامية دخلت فى معـــاجم أخرى دون أن تدخل حقيقة فى اللغة العبرية .

سابعها - شرحت كل لفظ شرحا قصيرا سهلا واضحا يجمع بين كونه تعريفا جامعا مانعا ، وكونه مسوقا بأسلوب أدبى لا جفوة فيه . كما روعى فى الشرح أن يتضمن قدرا لا بأس به من المترادفات لإغناء

الباحث فى هذا المعجم بألفاظ كثيرة أخرى يكتسبها دون عناء أثناء اطـــلاعه .

وقصارى القول أن المعجم العربى الحديث ما يزال بحاجة إلى جهود متضافرة بين الأدباء والعلماء والمهندسين والأطباء واللغويين وغيرهم ، كما يحتاج إلى اهتمام باللغة نفسها من الصحافة اليومية والأسبوعية فى العالم العربى ، إذ بدون « الوعى اللغوى العام » لا يستطيع أى تنظيم لغوى ، مهما بلغ من القوة والدقة ، أن يصيب الهدف بأحكام .

— ٥ —

العرب وأحكام الكلام

أشرنا إلى أن اللغات السامية تمتاز بوجود ما يسمى بالجملة الاسمية ، وهى الجملة التى تخلو من الفعل ، مثل : السماء زرقاء ، الشجر فى الغابة ...الخ. هذا إلى جانب الجملة الفعلية مثل : نزل المطر ، يسير المركب ، خـــذ الكتاب ... الخ . وهناك جملة وسط بين الاسمية والفعلية ، فعندما أقول : الشمس طالعة ، أكون فى الواقع قد أخذت فى كلمة طالعة شطرا من معنى الفعل ، وهو الحـــدث ، أى الطلوع دون الزمن ، ولكنه مستفاد من صيغة فعلية دالة على الحال كالمضارع . وعندما أقول : كانت السماء زرقاء ، فإن هذه الجملة وسط أيضا بين الفعلية والاسمية ، فالفعل «كان» يدل على شطر من معنى الفعل وهو الزمن دون أن يكون هناك حدث . ولذلك سميت كان وأخواتها أفعالا ناقصة ، كما سميت ناسخة ، لأنها تغير نظام الإعراب فى الجملة الاسمية فتجعل الخبر المرفوع فى الأصل منصـــوبا .

نظام الجملة العربية هذا ، مع احتفاظ هذه اللغة العريقة بالاعراب ، كفلا لها مرونة فى أداء الأفكار ، وإمكان التأقلم فى مختلف البيئات والأزمنة والظروف . ولما كنا نعرف الآن أنها على أيام الجاهلية كانت « لغة مقدسة »

أى غير شعبية ، خاصة بالصفوة من المتحدثين بلسان قبائلهم ، وبالكهنة ، والعرافين ، والأطباء ، والخطباء ، والشعراء ؛ وأن هؤلاء ، فيما عدا قريشا وبعض القبائل التى حافظت على هذه اللغة المقدسة ، كانت لهم لكنات ، ورطانات ، وعاميات فى أقوامهم ، فليس عجيبا أن يقفز بعض هذا على ألسنتهم وهم يتكلمون الفصحى ، فتقبله بمرونتها المعهودة ، ثم ينقل مع الزمن صحيحا ، أو محرفا ليصبح شواهد فى النحو والصرف .

كل ذلك جعل قواعد التركيب المدرجة فى الكتب التى بين أيدينا لاتعين من يجهل أحكام هذه اللغة على الوصول إلى إتقانها وعدم الخطأ فيها بسرعة وسهولة . وليس ذلك كله راجعا إلى صعوبة اللغة ذاتها ، بقدر مايرجع إلى إعتساف الذين رسموا الطريق إليها . ومرد ذلك إلى أن نشأة النحو عاصرت ظهور الفرق الإسلامية من أهل سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج وغيرهم ؛ وكانت روح الخلاف ، وحمى المعارضة والمناقضة مسيطرة على التفكير العلمى إذ ذاك ، كما كانت الفلسفة ، لاسيما منطق أرسطو ، من أشياء الفكر المستحدثة التى يطيب للعرب والمسلمين أن يحكموها فيما شجر بينهم . فالاختلافات فى العقائد والأحكام كانت كثيرا ماتؤدى إلى اختلافات حول التركيب فى آى القرآن الكريم وفى لفظ الحديث الشريف ؛ وكان ذلك كله يحتاج إلى تخريج على ضوء قواعد العرب فى لسانها ، وإلى تدليل عقلى مطابق لما يقتضيه المنطق ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك وجود من ينتحلون الشعر وينسبونه للعرب ، ومن يصنعون الألفاظ والتعبيرات صنعا ثم يدعون أنهم أتوا بها من فم الناطقين فى البادية علمنا أن قواعد النحو والصرف فى اللغة العربية قد تعرضت لركام كثير ومعقد جدا ، غير ضرورى إلا للمتخصص .

ومع ذلك فإن نحـــاة العرب القدامى يستحقون منا كل تكريم لذكراهم ؛ لأنهم لم يألوا جهدا فى تقييد كل صغيرة وكبيرة ، بحيث أصبحنا اليوم اليوم وعلينا واجب التنظيم والانتقاء .

وعلم النحـو ينسب إلى أبى الأسود الدؤلى ، وضعه بمشورة أمـير المؤمنين على بن أبى طالب . يقول أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى فى كتابه « نزهة الألبا ، فى طبقات الأدبا » : « وسبب وضع علىّ عليه السلام لهذا العلم ماروى أبو الأسود ، قال : دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فوجدت فى يده رقعة ، فقلت ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ـــ يعنى الأعاجم ـــ فأردت أن أضع شيئا يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه . ثم ألقى إلى الرقعة ، وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف . فالاسم مـا أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى . وقال لى : أنح هذا النحو ، وأضف إليه ماوقع إليك . واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة ، ظاهر ومضمر واسم لاظاهر ولامضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولامضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم . قال : ثم وضعت بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى باب إنّ وأخواتها ، ماخلا لكنّ ، فلما عرضتها على علىّ ، عليه السلام ، أمرنى بضم لكن إليها . وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه، رضى الله تعالى عنه ، إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، قال ما أحسن

هذا النحو الذى قد نحوته ! فلذلك سمى النحو [1] .

وواضح من هذه الرواية ومن كثير مما يشبهها حول بدايات النحو ، أنه بدأ بسيطا يسيرا ؛ وليته ظل كذلك ، فقد كان هدفه وقاية الألسنة من الخطأ فى صياغة الجملة ، وكانت أبوابه لاتتوخى حدود المنطق الارسطى ورسومه بقدر ماتتوخى « مافيه الكفاية » لتقويم الالسنة .

جاء بعد أبى الأسود جماعة نعرفهم بأخبارهم لا بأعمالهم ، أشهرهم عنبسة بن معدان المهرى . المشهور باسم عنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، أبو داود ، ويحيى بن يعمر العدوانى ، وميمون الأقرن ، وعبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء .

ومن هذا الرعيل أيضا عيسى بن عمر الثقفى ، أبو سليمان (ويقال أبو عمرو) ، وكان من ثقات قراء القرآن وعلماء اللغة ، وعرف بتفاصحه ، وتقعره فى كلامه ، وتركه سهل الألفاظ إلى الوحشى والغريب ، تروى له فى ذلك نوادر كثيرة . وقد ألف فى النحو كتابين هما كتاب « الجامع » ، وكتاب « الإكمال » ، وفيهما يقول الشاعر .

ذهب النحوُ جميعا كلُّهُ   غير ما أحدث عيسى بنُ عمرْ
ذاك إكمالٌ وهذا جامعٌ   فهما للناس شمسٌ وقمرْ

---

(١) ابن الانبارى ــ نزهة الألبا , ص : ٤ وما بعدها .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى [1] أنه كان على رأس جماعة يرجع اليها الفضل فى نقل هذا العلم إلى الكوفة - وكانت بداياته فى البصرة . وقد أخذ عنه الخليل بن أحمد البصرى أستاذ سيبويه . وممن ارتبط نشاطه بمدينة الكوفة من هذا الرعيل الاول أبو معاوية شيبان بن عبد الرحمن التيمى النحوى ، وقد هجرها إلى بغداد . ومن نحـــاة الكوفيين أيضا أبو جعفر الرؤاسى صاحب كتاب « الفيصل » ، وأبو مسلم معاذ الهرّاء .

ويبدأ التاريخ الحقيقى لمدرسة البصرة فى النحو بالخليل بن أحمد ثم يونس بن حبيب ويأتى بعدهم مباشرة سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، ويقال فى كنيته أبو الحسن أيضا وهو فارسى الأصل وسيبويه لقب له معناه « رائحة التفاح » ويقال إن أمه كانت ترقصه وهو صغير بذلك . وهو صاحب « الكتاب » الذى يعتبر مرجع المراجـــع فى النحو العربى .

وإذا كان سيبويه يعتبر بكتابه إمام نحاة البصريين ، فإن أحد معاصريه أيضا قد تزعم مدرسة الكوفة وهو أبو الحسن على بن حمـــزة بن عبد الله بن عثمان (وقيل بهمان) بن فيروز الكسائى . أخذ عن الرؤاسى والهرّاء . ونبغ فى إحكام قراءة القرآن الكريم ، فصار أحد

---

(١) فقه اللغة ، ص : ٢٦٨ .

الأئمة القراء السبعة . قال تلميذه أبو زكريا يحي بن زياد الفراء : إنما تعلم الكسائى النحو على الكبر ، وكان سبب تعلمه أنه جاء يوما وقد مشى حتى أعيي فجلس إلى قوم فيهم فضل ، وكان يجالسهم كثيراً ، فقال قد عييت . فقالوا له : تجالسنا وأنت تلحن ؟ فقال : كيف لحنت ؟ فقالوا له : إن كنت أردت من التعب فقل أعييت ، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فى الأمر فقل عييت مخففة . فأنف من هذه الكلمة وقام من فوره ذلك فسأل عمن يعلم النحو ، فأرشدوه إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ما عنده ، ثم خرج إلى البصرة وافى الخليل بن أحمد وجلس فى حلقته ، فقال رجل من الأعراب : تركت أسدا وتميما ، وعندهما الفصاحة ، وجئت إلى البصرة ؟ وقال للخليل بن أحمد . من أين علمك هذا ؟ فقال . من بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، فخرج الكسائى وأنفد خمس عشرة قنينة حبرا فى الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظه . ولم يكن له هم غير البصرة والخليل ، فوجد الخليل قد مات وجلس فى موضعه يونس بن حبيب البصرى النحوى ، فجرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها وصدره فى موضعه [1] .

ومثل هذه القصص ينبغى أخذها بحذر ، فلعلها ليست إلا نوعا من التاريخ الأسطورى لبداية علم النحو وأئمته . فهم يروون عن سيبويه شيئا يدخل فى هذا النمط . وقال نصر بن على : كان سيبويه يستملى على حماد

---

(١) ابن الانبارى ، نزهة الألبا — ص ٨٢ وما بعدها :

بن سلمة ، فقال حماد يوما : قال صلى الله عليه وسلم « ليس أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ، ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه ليس أبو الدرداء . فقال له حماد : لحنت ، ليس أبا الدرداء . فقال سيبويه : لاجرم ، لأطلبن علما لاتلحننى فيه أبدا . وطلب النحو ، وأخذ عن الخليل بن احمد وعن يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وغيرهم ، وبرع فى النحو ، وصنف كتابه الذى لم يسبقه أحد إلى مثله ، ولالحقه أحد من بعده [1] » .

ومهما يكن من شىء فإن الكسائى الذى تزعم مدرسة الكوفة مات ولم يؤلف شيئا فى مستوى الإحاطة والاستقصاء اللذين ظهرا فى كتاب سيبويه ، ولعل ذلك كان من أسباب تقلص النحو الكوفى كله من بعده ، إلى جانب ما كان يشيعه البصريون عن نحاة الكوفيين من أخبار تخدش الثقة بهم ، ومن ضمنهم الكسائى ، إذ يروى السيوطى عن الاصمعى : « أخذ الكسائى اللغة عن أعراب من الحطمة ، ينزلون بقُطْرُبُّل ، فلما ناظر سيبويه استشهد بلغتهم عليه ، فقال أبو محمد اليزيدى :

كنا نقيسُ النحوَ فيما مضى على لسانِ العربِ الأولِ
فجاء أقوامٌ يقيسونه على لُغَى أشياخ قُطْرُبُّلِ
فكلهم يعملُ فى نقضِ ما به يُصابُ الحق ، لا يأتلى
إنّ الكسائىَّ وأصحابَه يرقَوْنَ فى النحوِ إلى أسفل

---

(١) نفس المرجع : ص ٧٢ .

وقال فيه :

أفسد النحو الكسائىّ ‌‌‌‌‌‌‌‌ وثنّى ابنُ غزاله
وأرى الأحمر تيسا ‌‌‌‌‌‌‌‌ فاعلفوا التيس النخالة

وقال ابن درستويه : كان الكسائى يسمع الشاذ الذى لايجوز إلا فى الضرورة ، فيجعله أصلا ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك [1] »

وقد اتخذت الخصومة بين البصرة والكوفة شكل الحزبية العقائدية ، فتعصب أهل كل مصر لمصرهم ، حتى كتب ابن الانبارى كتابا كبيرا فى حصر المسائل التى لم يتفق عليها المذهبان فى النحو هو « كتاب الانصاف ، فى مسائل الخلاف » ، والكتاب على الرغم من اسمه كان منحازا إلى جانب البصريين .

تحول النحو بعد ذلك إلى علم مستقر لايختلف فيه مؤلف عن آخر إلا فى توجيه المناقشات أو الإكثار من العُقَد الجزئية أو الإقلال منها ، أو محاولة بعض التخريجات الإعرابية اللبقة الذكية ، مما به أصبح هذا العلم معرضا للمهارة ، ومجالا للتكاثر بالمعرفة ؛ أكثر منه آلة تخدم المتعلمين ، وتعصمهم من الشرود عن سنن العربية القويم . ولعل ذلك من أسباب عزوف المثقفين المعاصرين من العرب عن الاهتمام بسلامة اللغة ودراسة نحوها وصرفها . فكتب النحو ماتزال مفتقرة إلى الترتيب

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ص ٣٣٦ .

الإحصائي لمصادر القواعد ؛ فلو أنني جمعت في دستور أساسي للغة ، القواعد التي تجري عليها صياغة الجملة العربية بين الفصحاء المشهود لهم بسلامة الأداء ، منذ الجاهلية ، ولا أقول حتى مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، بل إلى شوقي والبارودي والأخطل الصغير والزهاوي وأضرابهم ، فسيمدنا هذا الإحصاء بلب اللباب من قواعد اللغة العربية ، وستكون الشواهد والأمثلة عليها مستفيضة شائعة ، كما أن عـــدد القواعد في ذاتها سيكون محدودا ، يسهل الإلمام به ، وتطبيقه بلا تردد ، ولا خوف من احتمال قولين . بعد ذلك سيهدينا الإحصاء إلى الأقل ورودا ، وإلى النادر وإلى ما تختص به قبيلة دون أخـــرى ، وإلى ما اندثر من ألسنة المتكلمين والكتاب ؛ وكل ذلك يمكن تصنيفه وترتيبه وإثباته بشواهده ، ومناقشات النحاة حوله ، في كتب أكثر توسعا . حتى نصل إلى قمة التخصص في معرفة أسرار العربية ، فيجد الباحث المادة معدة مرتبة ؛ ومن الممكن في تلك المستويات العليا الاستفادة من الآثار التي خلفها لنا الأسلاف في الفكر اللغوي ، سواء ما كان منه نحوا وصرفا ككتاب سيبويه ، أو بين النحو والصرف واللغة والأدب كالخصائص لابن جني ، والأمالي للقالي ، والكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبه ، والنوادر لأبي زيد ، وغـــيرها .

بقيت هنـا كلمة لا بد منها وهي ضرورة الاستعانة بالدراسات المقارنة والتاريخية في الوصول إلى أعماق أبعد وآفاق أوسع نكشف بها المزيد من أسرار لغتنا ومزاياها .

فالدراسة المقارنة للنحو والصرف ستهدينا إلى حقائق تستحق الوقوف عندها ، من ذلك مثلا :

أن للجمع صيغة قياسية فى المذكر بالواو والنون وفى المؤنث بالألف والتاء ، ومع ذلك فإنه يوجد إلى جانبها صيغ متعددة من جموع التكسير ، فأنا أقول فى جمع كاتب جمع مذكر سالم « كاتبون » وفى كاتبة جمع مؤنث سالم « كاتبات » ، ولكننى أقول إلى جانب هذا « كتّاب » و « كتبة » . فمن أين جاءت هذه الازدواجية فى الصيغ لمعنى واحد ؟ كل اللغات السامية لا توجد فيها إلا صيغ من الجمع السالم ، فيما عدا الحبشية واليمنية القديمة . ولو أننا تعقبنا الصيغ الكثيرة لجموع التكسير فى اللغة العربية ، ولأسماء الجمع ، وأسماء الجنس الجمعى ، لتبين لنا أنها صيغ بعضها جاء من الحبشية واليمنية ، وبعضها جاء من الأكادية فى صيغ جمعها أو من السريانية والآرامية ؛ ثم عملت العبقرية العربية فى ذلك كله ، فخصصته بمعان ، وأوزان ، وألوان من الإعراب أحيانا ، حتى أصبح من صميمها .

هذا مبحث لا يكشف عنه إلا الدرس المقارن للصيغ والاستعمالات فى اللغات السامية ، ويلحق بذلك طريقة العرب فى صياغة الواحد من اسم الجنس بإضافة تاء تأنيث لا تفيد التأنيث على الحقيقة ، وإنما تفيد الوحدة ، فنحن نقول « تين » لجنس هذه الفاكهة ، فإذا عبرنا عن واحدة منه قلنا « تينة » ، وكذلك « عنب » و « عنبة » ، و « حب » و « حبة » ... الخ . ثم كيف تطور هذا على لسان العوام إلى أمثال « عنباية » و « حباية » ونحو ذلك .

نلاحظ أيضا أن اللغة العربية تبنى الفعل الثلاثى للمجهول بضم أوله وكسر ثانيه ، فتقــول «كسِر» ، و «سُرِقَ» ، و «فُجِعَ» ، و «رُمِىَ» كلها بضم فكسر ، بينما تجنح اللغات السامية الأخرى إلى صيغ المطاوعة : «انفعل» فى الأكادية والكنعانية وما تفرع منها و «اتفعل» فى المجموعة الآرامية بلغاتها ولهجاتها . ونحن نعلم أن العرب يكرهون ، كغيرهم من الساميين مجىء الضمة والكسرة القصيرتين متعاقبتين ، حتى قيل إنه لم يرد بهما اسم ثلاثى إلا «الدئل» ، اسم قبيلة أبى الأسود الدؤلى ؛ ولاستثقالهم ذلك كانوا ينطقونها أحيانا «الديل» ؛ ولم يرد فى لغتهم العكس أى الاسم الثلاثى المبدوء بكسرة تليها ضمة أبدا . فليس عجيبا والحالة هذه أن يقل استعمال الثلاثى المبنى للمجهول شيئا فشيئا على ألسنة العرب ، حتى يختفى نهائيا من اللهجات ، إذ أصبحوا يقولون «انكسر» ، و «انسرق» ، و «اتفجع» ، و «اترمى» .

ونحن نعرف أن اللغات السامية الأخرى لا تكاد تعرف من حروف العطف التى تفيد الجمع - لا الإضراب ولا الاستدراك - إلا الواو فقط ، بينما نجد فى اللغة العربية الواو ، والفاء ، وثم ، ولكل منها معنى معين واستعمال محدد . والنحو المقارن هو وحده الكفيل بكشف الستار عن هذه الأسرار . ومثل ذلك يقال فى حروف الجر ، وأدوات الشرط وغيرها من مظاهر الثراء الصحى المبقرى فى لغة العرب . وكذلك نحتاج إلى النحو المقارن فى الوصول إلى مزيد من الجلاء والتوضيح الدقيق للأساليب التى تعمد إليها اللغة العربية فى ربط الجمل بعضها ببعض ، وعودة

الضمائر إلى ما تشـــير إليه ، وتنويع دلالة صيغتى الفعـل : الماضى والمضارع ، على الازمنة المختلفة .

وهكذا لا نستطيع فى ميـدان البحث اللغوى أن نقـول مع القائلين وما ترك الأول للآخر شيئا » . بل لقد بقيت أشياء وأشياء ، ونجمت فى صلات العربية بالفـكر الحديث مشاكل ومشاكل ، ما تزال تطالبنا بالمزيد من التعمق فى كشف أسرار كلام العرب . ويالها من أسرار !



الفهـــارس



١ - فهرس المصادر والمراجع

ا - المصادر والمراجع العربية

١ - إبراهيم أنيس (الدكتور) : دلالة الألفاظ
الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٢

٢ - إبراهيم اليازجى : نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، فى المترادف والمتوارد
الطبعة الثانية ، حريصا (لبنان) ١٩١٢ - جزآن

٣ - ابن الانبارى ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد :
نزهة الألبا ، فى طبقـــات الأدبا
طبع حجر ، القاهرة ١٢٩٤ هـ

٤ - ابن عقيل : شرح ألفية ابن مالك فى النحو
طبع محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٤

٥ - ابن فارس ، أبو الحسين أحمد :
الصاحبى ، فى فقه اللغة ، وسنن العرب فى كلامها
حققه وقدم له الدكتور مصطفى الشويمى
مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت١٩٦٢/١٣٨٢

٦ - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الد محمد بن مكرم الإفريقى المصرى :
لسان العرب ، طبع بيروت ١٩٥٦ فى ١٥ مجلدا

٧ - أمين نخله : الحركة اللغوية فى لبنان فى الصدر الأول من القرن العشرين
الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٨
٨ - حسن ظاظا (دكتور) : اللسان والإنسان
الإسكندرية ١٩٧١
٩ - الخفاجى ، شهاب الدين أحمد : شفاء الغليل ، فى مافى كلام العرب من الدخيل
القاهرة ١٣٢٥ هـ
١٠ - الزبيدى ، السيد مرتضى : شرح القاموس المحيط للفيروزابادى ، المسمى
تاج العروس ، من جواهر القاموس - طبع المطبعة
الخيرية بالقاهرة -
١٣٠٧ هـ فى ١٠ مجلدات .
١١ - الزمخشرى ، جار الله محمود بن عمر : تفسير الكشاف ، المسمى
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون
الأقاويل فى وجوه التأويل
طبع التجارية بالقاهرة ، سنة ١٣٥٤ هـ فى ٤ مجلدات
١٢ - السكاكى ، أبو يعقوب يوسف :
مفتاح العلوم - القاهرة ١٣١٧ هـ
١٣ - سيبويه : الكتاب
طبع بولاق ، ١٣١٦ هـ
١٤ - السيوطى ، جلال الدين بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة -
القاهرة ١٣٢٦ هـ

١٥ - شاكر البتلونى : نفح الأزهار ، فى منتخبات الأشعار ،
ضبط وتصحيح الشيخ إبراهيم اليازجى ،
الطبعة الثامنة ، دار كرم بدمشق .

١٦ - على عبد الواحد وافى (دكتور) :
فقـــه اللغـــة - دار نهضة مصر للطبع والنشر
بالفجالة - القاهرة .

١٧ - فليش ، الأب هنرى فليش اليسوعى : العربية الفصحى ،
تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين
بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٦

١٨ - محمد كرد على :
مجلة المقتبس ١٩١١ (أخذ عنها الأستاذ أمين نخلة)

١٩ - محمود السعران (دكتور) : علم اللغة
دار المعارف بالاسكندرية ، ١٩٦٢

٢٠ - نخلة ، الأب رفائيل نخلة اليسوعى :
غرائب اللغة العربية - الطبعة الثانية المكملة
المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٦٠

٢١ - نخلة ، الأب رفائيل نخلة اليسوعى :
قاموس المترادفات والمتجانسات
بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٧

٢٢ - يوسف المغربي :

دفع الإصر ، عن كلام أهل مصر

أو : الفضل العام ، وقاموس العوام

مخطوط بمكتبة الكلية الشرقية بجامعة لينينجراد ، قام بنشره مصـــورا ، والتقديم له ، وفهرسته ، الدكتور عبد السلام أحمد عواد

موسكو ١٩٦٨

ب ـ المصادر والمراجع الأجنبية

Bergman, Peter M. :

The Concise Dictionary of 26 Languages, New York; 1968

Boissière, P.

Dictionnaire Analogique de la langue Française ; Paris .

Brockelmann, C. :

Grundiss der vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, - Laut und Formenlehre : Berlin, 1908.

Cantineau , J, :

Cours de Phonétique Arabe.

الجـــزائر سنة ١٩٤١

Darmesteter, Arsène :

La vie des Mots. - Paris 1932.

Gesenius , Wilhelm :

Hebräisches und Aramäisches Handwörterbuch : Leipzig, 1921.

Grammont, Maurice :

Traité de Phonétique, Paris 1922

Kasimirski , M :

Dictionnaire Arabe - Français ; Maisonneuve, Paris.

Mitterand, Henr :

Les Mots Français. Collection " Que Sais - Je ? " : Paris, 1961.

Renan, Ernest:

Histoire Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques. - Paris 1855.

Sander & Trenel :

Dictonnaire Hébreu — Français, Paris 1859

Sapir, Edward. :

Le Langage — Introduction à l'Etude de la Parole, Traduction de S. M. Guillemin, Payot — Paris, 1953 .

Dupiney de Vorepierre, :

Dictionnaire Français, Paris, 1868.

Zaza, Hassan :

Le Semrent chez les Anciens Sémites, Paris, (Thèse de Doctroat) 1957.

مراجع باللغة العبرية

- بورشتاين . إسرائيل : أحكام النطق
القدس ١٩٤١

- سيجال ، م . ص. : أسس الصوتيات العبرية
القدس ١٩٢٨

- كروبنيك ، باروخ : معجم عبرى حديث .
تل أبيب ١٩٣٦



١ ـ فهرس الألفاظ والعبارات

[أ]

[س]

[ش]

٣ — فهرس الأعلام

[ى]

٤ ــ فهرس الشعوب والقبائل والطوائف

٥ - فهرس المواضع والاماكن والبلدان

٦ ـ فهرس اللغات واللهجات



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحه

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

(تم بعون الله تعالى)


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com